موضوعات ومواقف

كتابات

غسان كامل ونوس

موضوعات ومواقف

كتابات

الإنسان والبرهان

"يا صديقي الجميل..!"

قالها صادقاً ـ ربما ـ وليس هذا مهماً، أو.. ليس هذا الذي فكرت وأفكر فيه الآن على الأقل؛ بل الذي شغلني أمر مازال يهيمن على تفكيري منذ زمن ليس بالقليل:

متى كان تعبير "الصديق" غير كاف لوحده، أو غير مقنع، ومتى كان قائله يحسّ أنه ناقص الدلالة، أو غامض، أو ساذج؟! ويحتاج إلى كلمات أخرى لوصفه أو تسويغه أو تزيينه؟!

وليست "الصداقة" وحدها تتطلب مثل هذه الإضافات أو تلك؛ بل إن الحب "ذاته" ــ وقد كان بضاعة نفيسة ــ صار يحتاج إلى تعريف، وأضحى تعبيراً فضفاضاً أو غائماً.. بالياً ربما!! وغدا لإيقاع لفظه ـ أو حتى التفكير به ـ صدى مبلبل. ولا يخجل بعض القائلين به من أنك: "الحب الأكبر"! وبالتالي فهناك حب أصغر، أو من مرتبة الوسط والضعيف. فيا ليت شعري كيف يمكن قياس ذلك.. وما المعايير الصالحة للتقويم والمفاضلة والتمييز؟!

ناهيك عن تعابير أخرى كانت تعني الالتزام والحميمية والمسؤولية إلى جانب الخفق المضطرم، وهفهفة الروح، وتلفّت العين والقلب.. وصارت هي ذاتها محط تساؤل واختبار!

فالأخوّة والأبوّة والبنوّة على المحك بكلّ ما تعنيه، إضافة إلى ما سبق، من مشاركة وتواصل، وتواشج العواطف والأحاسيس قبل العلاقات والمصائر؛ والأمومة، بكل جوانيتها وارتباطاتها المقدسة، واحتضاناتها الرحمية والأسروية، صارت موضع دراسة؛ إذ صار ممكناً أن تتساءل عن الأمّ الحقّ، هل هي الوالدة أم المربية؟! صاحبة البويضة الملقحة أم حاملتها بما يعرف الآن بالأم البديلة؟! كل ذلك بعدما تضاءل الإرضاع، وخفّ الاحتضان، وتباعدت الحدود بين الأنين والصدى، وبين "الآخ" و"سلامتك"!

نعم، لقد تغير الكثير من المواقف، وخفّ بريق الكثير من الشعارات، وربما بهت أو تحوّر.. وناست رفرفة بيارق كانت تملأ الجهات بضجيج ألوانها وهدير زحوفاتها المنتظرة، المؤملة أو المحتمة..

تغيرت خارطة الدنيا، عواطف وتحالفات وانحيازات، وتبدّلت مناخات سياسية واجتماعية واقتصادية وحتى جغرافية.. وارتفعت حرارة الأرض، وصارت مألوفة على الأسماع أسماءٌ لم يكن لها حيّز على تضاريس القول ومنابر الإعلام؛ مثل: الدفيئة ـ ثُقب الأوزون ـــ الإيدز ـــ النظام العالمي الجديد، القطب الواحد، القرية الصغيرة، ثورة المعلومات، الإرهاب!!

نعم، أضيفت مفردات جديدة إلى قواميس قديمة، ومعان مغايرة لكلمات معروفة.. لكن، هل هذا يعني أن تتبدل القيم، أن تتشوه المفاهيم، وأن تحتاج المسلّمات إلى براهين؟! هل هذا يؤدي إلى أن يصبح الحق نفسه مثار بحث وتفاوض وقيل وقال؟! والذي يصحّ هنا لا يصحّ هناك، وما يجوز لهذا لا يجوز لذاك.. تُرى هل يحتاج الحق إلى من يحقّه؟! هل من المعقول أن يتطلّب الحق قوة لتسميته أو تحديده قبل إظهاره وإبرازه، وهو الذي كـــــــــــــــــــــــــــــــــــان ـ ويجب أن يكون دائماً ـ القوة بذاته؟!

ثم، من كانت لديه القوة، هل يفكر في الحق؟! أو يعنيه ويهمه جوهره؟!

بمعنى آخر؛ هل يحتاج القوي إلى الحق؟! أو أن ذلك لا يدخل في حسابه، وأن ما عنده من قدرة يكفيه (شرّ) التفكير في الحق، أو القتال والتضحية من أجله؟!

هذا الإنسان الكائن المتفرد على الأرض، المتباهي بأنه خُلق على مثال صورة الإله، المزيّن بالقشرة الدماغية، المكرّم بالتمييز بين الخير والشرّ، بين الحق والباطل؛ هل هو يتغير ـ ولا أقول يتطور -؟! هل يتحور إلى كائن مختلف يتناسى الواجبات، ويتغافل عن المتطلبات، ويتجاهل الحقوق، فيتقاوى على الضعفاء ويتعامى عن نصرة (أخيه) الإنسان؟!.. كل ذلك من أجل مصلحة ذاتية، ولا يعبأ بما يحيق بالآخرين من نكبات وكوارث وغصّات.. ومن دون أن يهتز له جفن، أو ترتعش ذؤابة (!!)

هل المشكلة في الشروط أو الظروف التي وجد نفسه فيها بمشاركة ورغبة.. أم هي في الدوافع والأحاسيس والمشاعر؟! أم هي في القدرات والإمكانيات التي تتطلب وتستهلك.. وتشغل، وتهيمن؟!

وهل هذا، بازدياده وتضاعفه مع تواتر التغيرات المحتملة أو العارضة، يمكن أن يجعل لقب (الإنسان) نفسه يحتاج إلى وصف أو تسويغ أو برهان؟!!

]]]

الواجب والروح

مما لا شك فيه، أن القيام بالواجب أمر مهم ومريح ومطلوب؛ بل لا بد منه في أي مجال، أو ميدان. ولو كان كل يقوم بواجبه في الموقع الذي هو فيه، بغض النظر عما إذا كان راغباً أو مضطراً، لكانت الأوضاع أفضل مما هي عليه، من دون أدنى ريبة.

ليس هذا ما أريد الخوض فيه، وسأفترض أن المهام الموكلة منفذة؛ بمعنى أن ما هو مطلوب قانوناً ومسؤوليات، يجري تنفيذه بحذافيره. لا شك في أن هذه الحال تقترب من المثالية، ومن الصعب توقع حدوثها على الأرض. مع ذلك يمكننا أن نتساءل:

هل هذا يكفي؟!

أعتقد جازماً أن هناك أشياء كثيرة أخرى تنطلق من صلب المهمة، وتشع عبرها، وتتجاوزها، وإن لم تسمَّ، وهذا في تقديري هو الفرق ما بين الإنسان كائناً بشرياً له مجموعة من الحواس، وله ذاكرة فردية وجمعية، وتحدوه آمال مشرعة نحو آفاق لا تحد، وبين الآلة التي تقوم بالواجب على أكمل وجه. فإذا ما صادف وجود يد مكان قطعة خشب أو حديد يراد قصها في آلة قص ما، فستبتر اليد بلا تردد أو أسف؛ فهل تلام الآلة؟! وهل يقبل مثل هذا الفعل من إنسان، أي إنسان؟! ألا يقوم بعض من الناس بما يشبه هذا بشكل أو آخر؟!

الفرق كبير جداً بين من يعمل بروح، وبين من يؤدي من دون روح، الروح التي يجب أن تظل فاعلة، من دون أن تلقى جانباً، أو يتم التغافل عن مؤثراتها، أو التغاضي عن إشعاعاتها. وهذا لا يعني إطلاقاً أن نتعاطف مع المسيء، إذا ما كرر الإساءة، إهمالاً أو قصداً، بحجة الروح الإنسانية.

ولكن ما أشير إليه، يتعلق بتلك الأحاسيس التي يجب أن تكون متوفرة، لالتقاط العناصر الإيجابية في أي فعل، والعمل على إبرازها وتشجيعها وتعميمها. وهذا يعني أن تكون قابلية إطلاق المبادرات نشطة، بما هو مفيد، وبما يفتح آفاقاً لم تكن موجودة، أو حتى متوقعة. ولا نصوص حرفية تطلبها.

من دون ذلك، تظل مواقع العمل المختلفة جافة قاتمة مقولبة، من دون روح، وهذا يفقدها الكثير من الاندفاع والحوافز والاستعداد لذلك. إن معنى الإنسان يتجاوز الحدود المرسومة، والقوانين النافذة، التي تتطلب، دائماً التطوير والتعديل مبادرات جديدة، ورؤيا أعم وأشمل وأعمق..

إن الإنسان قابلية مفتوحة للإبداع والاختراع والتجاوز، ومن الظلم الوقوف عند حدود المطلوب؛ ناهيك عن التقصير عما هو مطلوب.

وسأعطي مثالاً بمناسبة المعارض والاحتفالات المدرسية التي تتكرر كل عام.

أليس من مسؤولية المعلم أو المدرس اكتشاف المواهب من بين الطلاب الذين يتجددون سنوياً؟! وهل يعدّ الواجب مكتملاً إذا ما قام أستاذ الرسم مثلاً بتنفيذ

الرسوم شخصياً، بحجة أن الطلاب لا يبيضون الوجه؟! أو إذا ما قام أستاذ الموسيقى بتقديم المعزوفات بنفسه، لأن التلاميذ ينشزون؟! هذا في الفن، أما في المواد العلمية، في التجارب والحلول التي تدخل في صلب التفكير وتشغيل العقل، فالعملية تبدو أهم، والمسؤولية أدق وأعظم، وهل يعدّ المعلم أن المسؤولية انتهت بإعطاء الدروس في مواعيدها، من دون الالتفات إلى شعاع مرّ عبر جملة أو سؤال أو جواب جاء من طالب مهتم؟! وقد لا يدرك هذا الطالب أو سواه، أن ما يشغله مهم، ويمكن أن يتطور، إذا ما لاقى العناية والمتابعة. وكم من المواهب تموت حين لا تجد من يساعدها على النمو والنضوج، ومن يستطيع أن يقدر قيمة الخسارة في ذلك؟!

هناك معارض للإبداع، ومناسبات للتشجيع، وحوافز في بعض المواقع والأحيان، نعم، لكنها غير كافية، والكلام الجميل يمثل الخلية الأولى التي تستقبل العقول، ويكون — يجب أن يكون — لها الفضل الأول في الاكتشاف والتحفيز والتشجيع. ومن ثم تأتي الخلايا الأخرى.

أعود إلى القول: إن تأدية الواجب أمر بالغ الأهمية، ولكن روح الواجب هي التي تجعل من الواجب مشروعاً يزدهي بالاحتمالات الناصعة، ويبشر بالآفاق المشرقة.

[ ]]

العطاء!

ما تزال أصداء تلك القصة التي قرأتها من زمن بعيد، في أحد الكتب المدرسية تخطر في البال، وما تزال معانيها تتردد حيناً فحينا..

تقول القصة: إن الريح والشمس تنافستا مرة على من فيهما الأقوى. وراحت كل منهما تسرد للأخرى مظاهر قوتها، وتتباهى بقدراتها.. وحين لم تستطع أي منهما إقناع الأخرى، اتفقتا على مبارزة مستعجلة، كان مطيتها بدوي يسير في الصحراء وحيداً، وكان الشرط الذي وضعتاه، أن تحاول كل منهما إلزام البدوي خلع سترته. وتقدمت الريح أولاً، فبدأت تنسم بعنف، فتمسك البدوي بطرفي سترته، فغضبت وأخذت تشتد، وهياجها يتعاظم، فأثارت الرمال والحصى والغبار، وازداد تشبث البدوي بالسترة، ثم أقعى منكباً على نفسه شاداً أطرافه. وظلت الحال كذلك، حتى يئست الريح من استطاعتها إلزام ذاك البدوي البائس ترك سترته، ناهيك عن خلعها. فوهنت وناست، وتنحت عن الحلبة.. في حين أطلت الشمس بابتسامة ذات معنى, وبدأت تبث إشعاعاتها بلطف وعذوبة، وأخذ إحساس الدفء يدغدغ أعطاف البدوي، ويخفف من ذعره؛ فوقف، ثم مشى بحذر،

وتراخت يداه عن سترته رويداً رويداً. وتزايدت إشعاعات الشمس، وتضاعفت حرارتها.. فترك سترته تتهدل على جانبيه، ثم بعد حين، ومع ازدياد ضحك الشمس وتحديقها وإصرارها وثقتها.. خلع البدوي السترة، وضعها على رأسه، ومضى متعجباً من أمر الطقس الذي لا يستقر على حال!

كنت وما أزال أعتقد بأن القوة ليست مظهراً وحسب، وأن بالإمكان التعبير عنها بطرق أخرى غير طرق البطش واستعراض العضلات والصراخ بمناسبة أو من دون مناسبة.

وكنت وما أزال أعتقد أن القدرة التي لا تظهر إلا عند الضرورة، والموجهة ضد من يعتدي أو يظلم أو يدّعي أو يستعرض، لهي أكثر احتراماً ونبلاً وأثراً من القدرة الفظة الملوّح بها من أجل مصلحة أو استبعاد أو سيطرة.

وأحسب أن كائناً من كان لا يعدم أشكالاً من القدرة، وإن اختلفت أساليبها ومظاهرها وتأثيراتها..

وأن القدرة على العطاء أقوى أنواع القدرات، وأصعبها وأكثرها تأثيراً، وهي ليست في مستطاع الجميع، وليست بمقدور الكثيرين؛ إنها من جبلّة الكائن، وهي جوهره إن لم تكن عنوانه..

نعم.. هناك من لا يقدّر العطاء حق قدره، وهناك حالات يقع العطاء فيها على أرض مجدبة بلا خصب، فيضيع هباء.. وهناك من يفسر الأمر على غير ما هو ضعفاً أو تزلفاً أو غباءً! ولكن يبقى للعطاء المعنى الأكبر، والموقع الأبهى، والإمكانية القادرة على التأثير

لدى من يعرف قيمته، ويضاعف هذا من معناه وجدواه؛ إنه قيمة لصاحبه، لذاته في أقل تقدير.

والعطاء الأكثر قيمة وتعبيراً هو الذي تنتفي عنه الصبغة المادية، أو الذي ليست القيمة المادية أساسه ومبتغاه.

إن عطاء النفس والروح هو العطاء الحقيقي، وهو العطاء الأسمى..

إنه ما يبعث على الرضا، وهو ينبع من الثقة بالنفس وبإنسانية الإنسان. إن ما يجعل الرضا يزداد، والثقة تتعزز، والعطاء يستمر، هو أن تجد من يقدّر هذا العطاء، ويفي المعطي حقه، ولو بعد حين!

]]]

تواصل

للعلاقات بين البشر ظروف ووجوه وأشكال ومناسبات. ومن الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن يعيش المرء من دون تواصل إنساني. ومن البدهي أن يحتاج إلى مثل هذا التواصل، كي يحس بإنسانيته وجدواه.

ولبعض الناس موهبة العطاء الإنساني غير المادي، فتجد في وجهه البِشر، وفي ملامحه الرضا، وفي حركاته الاحترام، حتى لو كنت تلقاه للمرة الأولى.

كما أن للبعض الآخر القدرة على التمثيل، لكنه سرعان ما ينكشف من جراء مبالغته في التودد، واصطناع المواقف التي يهرق فيها الكثير من الكلام والجمل والحركات بشكل مجاني أو منافق.

ومن الناس من ابتلي بجفاف في التواصل، وبخل في التعبير الودّي، وإحجام حتى عن ردّ التحيّة بمثلها، أو بأقلّ منها. وترى وجهه مكفهراً، وحاجبيه معقودين، وملامحه مشدودة متوترة. وتحسب أنه جاهز للخصام بلا سبب.

وللعلاقات بين البشر موازين ومستويات ومعايير تتنوع وتختلف؛ إذ تزداد أصداء التعابير والملامح في

العلاقات البشرية حدة ومعاني، إذا ما كانت العلاقة بين مسؤولين؛ فلا تكاد تعرف الحقيقي من الخلبي، وغالباً ما يكون المستور غير الظاهر، وخاصة إذا ما تداخلت حساسيات المناصب والمواقع والصلاحيات والإمكانيات. أما حين تكون العلاقة بين مراجع ومسؤول، أياً كانت درجة مسؤوليته، فإن مفرداتها وعناصرها تحتمل الكثير من التوصيف والتعريف والتفسير، وتحتاج إلى الكثير.

ومن دون التقليل من أهمية أحد في مختلف مواقع العلاقة، فإن التعامل المستمر مع البشر، يخلق ظروفاً يمكن أن تترك لدى البعض خبرة ومرونة واستيعاباً وتفهّماً وصبراً، وربما متعة في التعرف إلى أصناف وطبائع وثقافات وقدرات، وسروراً لتأمين حاجات الناس، وتوفير جهدهم ووقتهم وأموالهم بتلبية متطلباتهم براحة ويسر وإقبال؛ كما يمكن للتعامل المتواصل أن يجعل العلاقة آلية باردة مفروضة كواجب ثقيل، أو مهمة ضرورية لقاء أجر محدد، خالية من أي حسّ إنساني؛ ناهيك عن تحولها إلى سبيل لابتزاز، وامتهان وانتقام، وإحساس بالفوقية والعظمة الفارغة.

حتى لو كانت هذه العلاقات مفروضة بحكم القرابة أو الجيرة أو الوظيفة، أو مختارة نتيجة الحاجة إلى المشاركة أو متطلبات المصلحة، خارج العمل أو داخله..

ومن الغريب؛ بل ربما صار من المعتاد، أن تلاحظ نفوراً واستنفاراً عند الكثيرين في الشارع أو الحافلة أو المديرية أو المؤسسة العامة أو الخاصة؛ فتشعر أحياناً أنك ذاهب إلى مواجهة وشيكة لن تخرج منها سالما بسهولة؛ حتى في تعاملك مع جارك في المقعد، أو زميلك في العمل، أو شبيهك في طلب ما، أو انتظار تفسير ما،

أو السؤال عن حال معينة. حتى لتحسّ، حين تخرج من بيتك صباحاً، أنك قاب قوسين أو أدنى من خلاف مع السائق الذي لا يكاد يعجبه أحد من الركاب، أو من زملائه السائقين، أو شرطة المرور، أو الإشارة الضوئية. ولن يستمع إلى أي رأي آخر. ومن المحتمل أنك لن تنجو من تسفيه التاجر إن ترددت في الشراء، أو تساءلت عن سعر أقل، أو نوعية أفضل.

كل هذا قبل أن تصل إلى موقع عملك، أو بعده بقليل؛ حيث تجده ميداناً لكل أنواع العلاقات بأطيافها القاتمة والناصعة. ولاسيما إذا ما كان عليك أن تجلس ساعات في غرفة، لا يكاد يفصل بين مكاتبها مسافات عبور شخصية؛ فكيف إذا ما اكتظّت منافذها بالمراجعين اللجوجين، الذين لا ينتظمون في دور أو ترتيب.

مما لا شك فيه أن لكل ظروفه غير الميسّرة دائماً، وهمومه غير القليلة، وحاجاته التي تكاد لا تنتهي، ويضاف إليها حاجات الأسرة ومن في كنفها. وهذا ليس مسوّغاً للقنوط والانقباض والاكتئاب والعصبية في كل حين؛. فكم ستتضاعف الهموم بتبعات متجددة، بينها ما لا يستحق الانشغال، لو كانت الحال أقل توتراً.

ويبقى النجاح والسلام حليف من يستطيع ترك همومه خارج أبواب عمله، فيتفرغ لتأدية مهمته، وتحمّل مسؤوليته، بكل روح رضية وإحساس بالأمان والاطمئنان؛ يفترض أن يؤمنها الجو العام أو يسعى إلى تأمينها!

ويستمر التواصل الإنساني الواعي والمتفهم والمترفع عن الصغائر، السبيل الأجدى لمجتمع مستقر

مطمئن يتحرك بإيجابية، ويرتقي بهدوء وثقة وإعجاب سلّمه صاعداً إلى ما تقتضيه حال الإنسان من سمو ورفعة.

]]]

أنتَ وأنا!

هذا الكلام موجهٌ إليك..

حين تقرؤه ستعرف ذلك.. أنت ستقرؤه حتماً، لأنك ستتابع طريقتك في التعامل مع الناس والتعرف إليهم.. عن بعد!

لا وقت لديك للتعرف إليّ عن قرب، لا وقت حتى لترفع يدك مسلماً حين ترمح جواري، ولديك كل الوقت لتقصّي أخباري، والتلذذ بطول المسافة التي تفصلك عني!

لا أرض لك للوقوف عليها، ولا سماء تراها!

السيارة التي تقلّك تمنعك عن ذلك، المكتب المزركش والدار المهمة والمخلصون.. كل هذا يحرمك من رؤية الأرض مزهرة أو قاحلة، ريانةً أو عطشى..

حياتك فصل واحد.. يا الله كيف يمكن للمرء أن يعيش في فصل واحد؟! ولكن.. من قال إنك تعيش؟!

من يقضي أيامه في إرضاء فلان والتمسح بظل فلان.. من يصرف تفكيره وجهده ويضحّي بأي شيء في سبيل المحافظة على موقعه والوصول إلى آخر، ويقلق آناء الليل وأطراف النهار، إن أحس بأية ريحٍ يمكن أن

تهب من أية جهة كانت.. من يخاف من ظلال الآخرين ولا ظل له، لا يعيش!!

أحسُّ، وكنا معاً ذات مرحلة في مدرسة واحدة وصف واحد، أنه لأمرٍ ما أبقتني الأرض قريباً منها، وأبعدتْكَ!

فأنا أحس بحلاوة الربيع ونشوة الصيف، لأني أتعرّى مع الخريف، وأطرى برائحة المطر؛ أما أنت فتعيش في فصل واحد! ولكن هل أنت متأكد أنه سيدوم؟! هل نسيت أن العمر فصول كما الوقت؛ تُرى كيف هو فصلك التالي؟!

قد تقول بين أتباعك ومريديك، إنني أحسدك، وأغار منك أو... لكنك، بينك وبين نفسك، تعرف أن ما عرض على كلينا واحد؛ بل ما عرض عليّ كان أكثر، لميزات مختلفة عنك، لحسن حظك ربما!

هذه الميزات هي التي وضعتني حيثُ أنا، وجعلتك حيثُ أنت!

ويمكن أن تقول: هذا الرجل لا ينام من فرط تفكيره بي وحقده عليّ..

لكني ـ والحق ـ أنام أكثر منك.. ليس لأنك تسهر على مصالح الناس وراحة العباد؛ بل لأنك تخاف أن تضع رأسك على الوسادة، فنعومتها تحرمك من توازن رأسك ومن هدوء أفكارك، وإن سمحت لك بذلك، من يضمن لك أنك ستستيقظ على الحال ذاتها والريح نفسها والفصل عينه؟! أما أنا فلا أخاف من شيء، والوسادة ـ ليست من حرير ـ حنونةٌ إلى درجة لا تترك لي مجالاً للتفكير كثيراً بما فعلت، وبماذا أخطأت؛ ليس معك؛ بل

مع الناس القريبين مني، الملتصقين بي، مع الناس الذين لا تحيّيهم إن مررت بهم وربما لا تراهم؛ وهم بالمناسبة لا يرون من كان مسرعاً، ولا يهمهم نوع سيارته؛ بل يفكرون بأن في السرعة خطراً على أولادهم الذين يمكن أن يكونوا على الطريق.. ويخافون على الراكب نفسه، لأنهم، وأيًّا كان، سيقومون بطقوس التشييع!!

رغم انشغالهم بمواسم وفصول يتعايشون منها ومعها، مع حرّها وبردها، مطرها وجفافها، فإنهم لا يخافون تغيّرها؛ بل ينتظرونه، ويحترمون الفصول ويقدرونها حق قدرها.. ويحزنون إن كان الصيف مريدّاً والشتاء بلا مطر، ويدعون للسقيا، وربما ينذرون النُّذُرَ ليغفر الله لمن كان عاقاً، وأن يسقي العطاش تكرّماً!

قد تتساءل الآن: لماذا هذا الكلام، وما الذي ذكّرني بك؟! وقبل أن تفرح بأني سأطلب واسطة من أجل مكسب أو منصب أو مسؤولية؛ فمسؤوليتي أكبر مما يُظن!! سأقول شيئاً آخر، قد يفاجئك.. أناديك لأقول لك، إنه ما زال هناك وقت، ما زالت الإمكانية متوفرة للوقوف والسلام، ما زالت المراجعة ممكنة، مراجعة الحسابات والعلاقات والأفكار، رغم أني أشك في إمكانية قبولك ذلك! مع هذا؛ دعني بكل أرضيتي وفصولي ومواسمي، بكل ظلالي ودفئي وبساطتي، دعني أهمس في أذنك شيئاً:

فيما لو عدتَ يوماً، وإن كنت راجلاً، لن تجد في انتظارك سواي!!

]]]

خــوف!

ليس خوفاً من كائنات وحشية، ولا خشية من قضاء لا راد لأحكامه. وليس تحسباً لأسئلة أو مساءلة، وليس رهاباًً من ظلام أو علوّ أو وحدة أو قنوط..

ولا خوفاً من تفتيش أو جرد مفاجئ، أو محاسبة..

باختصار: ما أقصده ليس خوفاً مما يخاف منه عادة، ليس خوفاً عادياً؛ بل هو خوف مختلف:

إنه الخوف من نجاح الآخرين!

ففي الوقت الذي يفترض أن يكون فيه المرء متفكراً في شؤون نفسه، مهتماً بتحسين أحواله، منشغلاً باكتساب المزيد من المعرفة والاطلاع والعلاقات والخبرات التي تجعله كائناً راغباً بحضوره ودوره، قابلاً للقيام بما هو مطلوب منه، وما هو منتظر منه، متأهّباً له مستعدّاً، تجده مهموماً بما يحقّقه الآخرون من نجاحات، مراقباً مكتئباً.. فينسى طموحاته، ويفقد اتزانه، ويصبح عرضة للتشتت والحسد والضغينة. وقد ينغمس في أمور النمّ والتنقيب عن المساوئ التي لا يكاد يخلو منها أحد، للتقليل مما يحصله الآخرون بجدهم وتعبهم ومواهبهم وإمكانياتهم.. وليس ثمة أمر أمرّ وأقسى من هذه البلوى؛ فمن حيث المنطق والواقع، هناك دائماً آخرون، وهناك من هم أقدر

منا في شأن ما من شؤون الحياة، ولا شك في أنّهم ينجحون فيما قد لا ننجح فيه، أو في أمر ليس مجال اهتمامنا أو اختصاصنا. وهذا يجب أن يكون حافزاً لنا على مضاعفة الجهد للوصول إلى المزيد من القدرات، بنوع من المنافسة الشريفة المطلوبة. أمّا إذا كنا سنأخذ هذا النجاح على محمل الهمّ والاكتئاب، فلن يكون لدينا وقت للجد والتحصيل فيما نحن معنيون به، أو مكلفون بإنجازه. ولن تكون لدينا القابلية ولا الأحاسيس ولا الحساسية التي تجعل أمر اقتفائنا الآثار الجدية، وتلمسنا الدروب الصحيحة، وتنبئنا بالريح الماطرة والمواسم الخيرة، أميناً وممكناً ومثمراً. وليس من ثقة تثبت أقدامنا، وتدعم جذوعنا المتهالكة، وفروعنا التي تلهث وراء روائح المكر والخديعة، ورمي الشباك في مسالك الآخرين، كي لا يكون النجاح حليفهم. لا شك في أن في هذا خطراً على الشخص ذاته؛ من حيث إنتاجه، وتطوره، وواقعه الحياتي والنفسي. لكن الخطر الأكبر على المجتمع والمؤسسات والوطن يظهر بضراوة، إذا ما كان أمثال هؤلاء الخائفين من نجاح الآخرين في مواقع المسؤولية والقرار. وبالتالي؛ فإنهم قادرون على التعرف إلى أصحاب الإمكانيات، المؤمنين بالعمل والجد والمسؤولية سبلاً للتقدم والتطور. فيصبح الشغل الشاغل لدى هؤلاء المسؤولين الحد من إتاحة الفرص لهم، وإبعادهم عن أية بوابات يمكن أن تفضي بهم إلى عبور آمن لهم وللمهمات التي يمكن أن يتحملوها برضا واقتدار، واستبعادهم من أية نشاطات يمكن أن تظهر فيها مواهبهم وقدراتهم؛ في الوقت الذي يتحدث فيه هؤلاء القادرون المقتدرون، محاربو النجاح ممتهنو الفشل

والإفشال، عن بطولاتهم الخارقة، ونجاحاتهم التي لا يشقّ لها غبار، بصرف النظر عما تراه الأعين الرانية بأسى وخيبة، وتحسه الأفئدة التي تتصدع من هول النفاق وعدم الحياء وعدم الإحساس بالخسارة التي تطال الجميع..

وليس صعباً تتبّع علائم الانقباض التي تعتري أحدهم، حتى وهو يبدي لك من مظاهر الود الكثير. وليست عصية متابعة حركات القلق وعدم الاتزان عليه، وهو يستمع إلى إطرائك من جهة ما. وليس أمراً غير متوقع أن يسارع إلى المنعطفات ليقطع عنك الهواء والماء، وليصفك بأسوأ ما يمكن، وبما يضجّ في نفسه تجاه أي من المجدّين المجتهدين، الذين نحتاج إليهم في كل موقع، وفي كل زمان، وإن كان حضورهم المرموق ليس من دون خوف على سمعتهم وجدواهم ومصيرهم.. لأن للمتصيدين نصيباً في مواقع عديدة، ومراكز مهمة.

إن أهمّ ما يمكن أن يعمل من أجل الحدّ من سطوتهم، ونجاحهم في إقصاء الناجحين، هو في إزاحتهم من مواقع التقويم والقرار، والإكثار من المخلصين الذين ليسوا قلة. وإن كان الكثيرون منهم مغيبين وراء حجب من دسّ وحسد وافتراءات وهلع من نجاحات يمكن أن يحققوها، والوطن في أمس الحاجة إليها..

]]]

لا أعلم!!

يقوم مبدأ الحوار أساساً على الاشتراك في الحديث من قبل متحدثين اثنين على الأقل. وهذا يعني أن لدى كل من المتحدثين المجال ليدلي برأيه، أو ليقول ما يريد التعبير عنه في موضوع الحديث؛ سواء أكان تعارضاً أو إضافة أو استفسارًا، وكلما كانت المشاركة أوسع وقتاً وفرصة وتناوباً، كان ثمة فائدة أكبر.

لكن ما يحدث أحياناً كثيرة لا يؤمّن هذه الإمكانيات كلها، أو بعضاً منها. فقد لا يتاح للآخر، أو الآخرين، الحديث، من دون أن يكون المتحدث الأول يتقصّد ذلك؛ بل لأن هذا (الأول) يحيط بكل ما يتعلق بالموضوع المطروح؛ يشرح ويفسر ويزيد، وينتقل، ربما، من موضوع إلى موضوع، ومن تفاصيل إلى أخرى، ومن حادثة إلى سواها.. ونتيجة لثقة المتحدث بنفسه ومعلوماته، سيكون أيّ تدخّل من الآخر تقليلاً من شأنه، أو إهانة تستوجب توجيه كلمات اللوم والتأنيب!

هذا ما يحصل كثيراً، ونماذج المتحدثين المستفيضين متوافرة لسوء الحظ، وتتزايد باطّراد مع ازدياد الكلام حول أهمية الحوار، من دون الدخول في تساؤل مشروع عما إذا كان ذلك ناجماً عن اقتناع، أو

تماشياً مع (الموضة)، أو تعايشاً (حضارياً) مع متطلبات (السوق)!

وفي ظاهرة التحدث الانفرادي هذه قتلٌ للحوار بحسن نية ربما، ونتائجها لا تقل ضرراً عن سوء النية؛ وجهنم لا تخلو من ذوي النيات الحسنة، كما يقال؛ إذ تتوزع الأذية على أكثر من مستوى؛ فالحالة لا تسمح للآخر بإبداء الرأي حتى لو كان تصحيحاً، وتحجب عن المستمعين الآخرين (في حال تواجدهم) إمكانية الاستماع إلى رأي آخر، أو معلومة أخرى. وتُبقي المتحدث رهين معلوماته، أو تكهناته، أو أوهامه.. وأفكاره لن تكون جامعة مانعة بأية حال، كائناً من كان المتحدث. ويمكن أن يقدم له الآخر معلومة أو حادثة أو تحليلاً يؤكد علمه، أو يزيد من كنوزه، أو يصحح أمراً، فيجنبه حرجاً قد يقع فيه في مجلس أكثر أهمية، وأكثر جزية!

وتفقد الجلسة أخيراً نكهتها ومتعتها وفائدتها، التي لن تتكرس عبر صوت واحد وإيقاع واحد ولون مهيمن. ولن تكون رغبة بتكرارها، وقد تضعف الهمّة للسعي لسواها من الجلسات التي تلزم، وترتجى.

من جهتي، أستغرب كثيراً أن لا يقول: لا أعرف، من كان حقاً لا يدري. وأدهَش أكثر لدى إصرار الكثيرين على آرائهم التي تعوزها الحجة أو المعلومة؛ ومن المتحدثين من تكون آراؤه أو أفكاره مستندة على معلومات قديمة، أو أفكار جرى دحضها أو تفنيدها. وقليلون من يحدّثون معارفهم حتى في أمور اختصاصاتهم؛ فيبقى المهندس مهندساً بما تبقّى لديه من علوم الجامعة، ويظل الطبيب أسير المعلومات التي حفظها؛ أما المدرسون فيمكن أن يرتهنوا إلى مفردات

المناهج التي يعلّمونها لطلابهم سنوات، وبالتالي؛ فإن الكثير مما تعلموه، ربما صار زائداً عن الحاجة!

وليست الشرائح الأخرى أحسن حالاً.

هذا في ما يتعلق بالاختصاص الذي نحمله، والمجال الذي نعمل فيه؛ ناهيك عن المعلومات العامة، والأفكار الأخرى، ومسارات الحياة المتعددة والمتفرعة، ونشاطاتنا ومواهبنا واهتماماتنا المتنوعة.

في الوقت الذي يعدّ فيه عصرنا عصر تدفق المعلومات. وهذا بدوره يحتاج إلى متلقّين قادرين على الغربلة والتحليل والاستنتاج، أو قادرين على الاختيار؛ بل حسن الخيار، من دون أن نكون سلبيين، نحفظ ونشرح بحماسة، معبرين دائماً عن إيماننا بمبدأ الحوار الذي يسمح لنا بالحديث المتواصل، ويمنح الآخرين فرصة الاستماع إلى ما لا نهاية!

وفي القول المعروف: "نصف العلم قولك إني لا أعلم"، إشارة واضحة إلى أهمية الاعتراف بعدم وجود معلومات مؤكدة في هذا المجال أو ذاك، من بحر المعرفة الذي ليس له قرار. وهذا لا ينتقص من الشخصية؛ بل يجعلها أكثر مدعاة للاحترام، وأكثر انفتاحاً على تقبّل الاستفادة؛ لأن ذلك يفتح السبيل لي للبحث عما لا أعرف، أو الاستماع إلى قائله بأريحية، والاستمتاع بالمعرفة الجديدة، والانشداد إلى ما يمكن أن تكون. وفي الجِدّة إثارة وحافز وتيقّظ، وفي الجِدّة المناسِبة غنى واكتناز وحضور وكيان ينمو، وشخصية تزداد اقتناعاً وبالتالي إقناعاً.

إن فـي القـول ذاك إبقـاء لإمكانيـة التلقـي الإيجـابي مفتوحـة، وتحفيـزاً للحـواس كـي تكـون قابليـة الاسـتيعاب مؤمّنة، بـدل أن نغلـق الأبـواب والمنافذ وربمـا المسـامات جميعهـا علـى آرائنـا وأفكارنـا، التـي يمكـن أن تـتعفن أو تأسن!

]]]

أهل وأبناء..

تشغلني وتقلقني بعض حالات التفكك الأسروي التي صارت هماً مضاعفاً على الأهل والأبناء والمجتمع. وفي معرض الحديث عن هذا الموضوع، يمكن القول إنه منذ زمن ليس بالبعيد، لم يكن الأهل متعلّمين في الغالب؛ الأب يخرج إلى الأرض أو المدينة لعمل يقصر ويطول، حتى ليكاد يكون وجوده بلا كبير تأثير، إلا بتوجيهات عامة محفوظة..

الأم، وعلى الرغم من خروجها إلى الأرض، كان تواجدها البيتي مقدراً، وهي تقوم، إضافة إلى أعمال البيت، بالإشراف المباشر على الأولاد. ولم تكن تنقصها أو تنقصهم الحنيّة والعاطفة التي ليست كلها صحية..

وكان الأولاد لمجرد كونهم طلاباً، وإن لم يكونوا متفوقين، فهم أصحاب مسؤوليات ولهم شخصياتهم، وهم بمعاناتهم الكبيرة في الوصول إلى المدارس، وتحمّل أعباء الطقس والمسافات، كانوا يفرضون وجودهم. وكان شيئاً مهماً أن يقال: فلان ما شاء الله لم يرسب في صفه**!!**

وهذا إنجاز في خضم الفاقة والفقر والجهل والبعد عن (الحضارة). وهو بالدرجة الأولى فارق مهم بين الأبناء المتعلمين، والأهل الأمّيين، وهذا ما كان يفرض

احتراماً من الأهل لأبنائهم، ويفرض مسؤوليات مضاعفة على الأبناء..

في العقود القليلة الماضية، اختلف الأمر كثيراً، فمن جهة صارت النسبة الغالبة من الآباء والأمهات من الشريحة المتعلّمة، ونسبة كبيرة من هذه النسبة يحملون شهادات؛ فماذا يعني أن يكون أولادهم متعلمين أو يتعلمون؟! إنه أضعف الإيمان، وماذا يعني أنهم يحملون شهادات؟! هذا لا يقدم ولا يؤخر إذا لم يكونوا متفوّقين. وما درجة التفوّق المطلوبة؟! إنها درجة عالية، الوصول إليها ليس سهلاً. فيما إذا تركت الأمور على سجيتها؛ أي أن يحصل المتفوّق على درجاته التي يستحقها، والآخرون لهم درجاتهم ومسؤولياتهم وأدوارهم الأخرى..

لكن التفوق مطلوب من كل الأبناء، وهذا همٌّ يلاحق الأهل قبل أولادهم منذ البدايات؛ أي من الصفوف الابتدائية. ولا ينجو منه إلاّ القليل..

ومن الطبيعي أن لا يكون كل الناس متفوّقين.. إذن ماذا ستكون النتيجة؟! خيبة أمل عند الأهل بعد طول قلق وانتظار، وخيبة حضور ومسؤولية لدى الأبناء الذين لم يستطيعوا أن يحققوا رغبة الأهل (وليس رغبتهم بالدرجة الأولى). فَيحِلُّ الإحباط، وتَحِلُّ عقدة النقص التي لن ينجو منها أولاد هؤلاء الأولاد في المستقبل.. وخلال هذه المعمعة المتواصلة، وهذه الملاحقة المطردة، يصبح الهروب من المواجهة سبيل الأولاد والأهل لمن يستطيع ذلك. وفي الوقت الذي يجد الآباء أكثر من حجة للخروج، تجد الأم نفسها رهينة أكثر من محبسي الوظيفة والبيت.. ويغدو الاهتمام بالأولاد تأدية واجب،

وقدر ما تستطيع، والأولاد إن عجزوا عن الخروج كثيراً من البيت، فإن لهم في وسائل الإعلام المفتوحة رغبة وحاجة وسبيلاً لتفريغ همومهم،وتحقيق تمردهم الذي ينعكس مشاحنات مستمرة في البيت مع بعضهم بعضاً، خاصة إذا كان فيهم من يزيد أخوته (تفوّقاً)، ومع الأب آن حضوره، ومع الأم على طول الخط..

فمن هو الرابح بين كل هؤلاء؟! ومن منهم ليس بخاسر؟!

الأمر يحتاج إلى مراجعة، والعلاقة بين الأبناء والآباء والأمهات لم تعد بسيطة؛ بل إنها مركبة وشائكة.. تساهم في صياغتها جهات متعددة، بعضها خارج الأسرة نفسها. وعلى الرغم من مقدار الانفتاح على العالم الذي يحظى به الأبناء اليوم، فإن ثمة تساؤلاً لايني يلح وأجده مهماً: هل الهموم والاهتمامات التي كانت محط حوار ونقاش لدى أجيال الطلاب منذ زمن، مازالت هي نفسها؟! أشك في ذلك؛ بل أكاد أجزم أن الهموم الآن صغرت إلى درجة تصبح الشخصية معها مرتهنة لرغبات من لا يجد لديه الفعالية والمسؤولية، واهتماماته وغاياته؛ ويا لها من غايات!

]]]

أساتذة وطلاب!

كانوا يأتون من مناطق مختلفة، بثياب رسمية، وهيئات جدية وخلفيات مجهولة. لا نعلم عنهم إلا أنهم أساتذة، وكنا نحترمهم!

صحيح أنهم كانوا لا يستقرون طويلاً على الغالب، ومنهم من لم يدم تواجدهم في المدرسة سوى أيام. ولكنا ما زلنا نتذكرهم، وننحني أمامهم إن صادفناهم، حتى لو لم يتذكروا ذلك؛ كانوا يحلّون أساتذة، ويذهبون أساتذة، ونحن طلاب.. لا شيء غير هذا.

كان حدثاً يشغلنا أن أستاذاً جديداً قد وصل، ويجعلنا ننصت ونتسمّر مراقبين كل حركة أو نأمة تصدر عن هذا الأستاذ، نحكيها لأهلنا الذين لم يكونوا أقل انشغالاً واهتماماً..

وكنا نحزن لأننا سنفارق الأستاذ أو ستغيب عنا المعلمة حتى أيام العطلة الانتصافية، ناهيك عن العطلة الصيفية.

وأذكر أني بكيت عشية عطلة انتصافية، لأن المعلم سيغيب أسبوعين، بينما يرقص الأبناء الآن من الفرح في المناسبة ذاتها!!

صار الأساتذة لا يغيبون حتى أيام العطل.. صاروا قريبين مجاورين المدرسة والطلاب، وصارت الحال مستقرة. وهيكل المدرسة التعليمي معروف ومستمر إلا في حالات استثنائية.. صار الأمر رتيباً والانشغال والاهتمام أقل!

صحيح أن هذا الوضع أجدى بالنظر إلى بدء التعليم الفعلي في وقت مبكر وانتهائه في وقت متأخر من دون إرباكات التغيير والتبديل في الأساتذة، أو التأخر في تأمين معلمين لهذه المدرسة أو تلك، أو مدرسين لهذه المادة أو سواها..

ولكنْ.. هناك أمور أخرى لا بأس من الإشارة إليها:

كنا لا نعرف عن معلمينا سوى أنهم أساتذة؛ أما طلاب اليوم فيعرفون عن أساتذتهم كل شيء..

كنا لا نراهم إلا في ثياب رسمية وهيئات جدية، وطوال اليوم يرون أساتذتهم في لباس العمل، وثياب النوم ربما!

طلاب اليوم يعرفون أساتذتهم في البيت، في العمل، في الشارع، في المقهى..

كنا لا نراهم إلا أوقات الدوام، وكان حدثاً أن نصادفهم في الشارع، فننزوي بعيداً عنهم، أو ننحني أمامهم صادقين.

الآن يظهر المعلمون في أوقات كثيرة، في الليل والنهار، في العطلة والدوام، وفي حالات أخرى.. منهمكين في العمل بأيديهم وأكتافهم ربما، في الأرض، في بيت بلاستيكي، في دكان، وربما يبتاعون منهم المتّة والعلكة والبزورات.. وأشياء أخرى!

الآن يعرف الطلاب كيف يعيش المعلم أو المعلمة في البيت، وأسرار العلاقة الأسروية، وكيف تسير الأمور حتى على مستوى التفاصيل الصغيرة، وإن فاتهم شيء من الخلافات الزوجية أو الأسرية، يتكفل الأهل بسردها أمامهم مع سير الحساسيات والمنافسات الحادة حتى في لعب الورق!

وقد تنتقل هذه الحساسيات إلى المدرسة، وربما إلى قاعات الدرس..

وقد لا يتردد الأهل عن تفسير كل موقف أو تصرف أو علامة من الأستاذ ذكراً أو أنثى تفسيرات أخرى، وقد يحيلونها إلى غايات انتقامية.

ولا يحجمون عن تعليقات ساخرة، يفرح لها الطلاب كثيراً..

من مثل: الآن صار (ابن فلان) أستاذاً؟!

أو: يحق لفلانة أن تفعل كذا.. نسيت أنها.. أو أن أهلها..

الأمر ليس بسيطاً، والقضية ليست سهلة، والنتائج تعرفونها..!

وما هو الحل؟!

هل نقول للمعلم: عش خارج الحياة، أو إنك لست إنساناً من لحم ودم ومشاعر وحاجات وميول؟!

أو نقول لطلاب اليوم: غضّوا الطرف والسمع، وخففوا من الشغب والفضول والثرثرة والتسويغ، وكونوا كباراً!

أو نقول للأهل: ترفّعوا عن الحديث بما تعرفون، وبما يجري أمام أولادكم على الأقل، وكفّوا عن عدّ أولادكم ضحايا، وهم عباقرة الزمان!

أو نقول: عيّنوا المعلم في غير حيّه أو قريته أو أهله!

أو نقول: سيري فعين الله ترعاكِ!!

]]]

المرأة والرجل

تخطئ المرأة كثيراً حين تريد أن تصبح رجلاً، وتخطئ أكثر حين لا تحسن اختيار الرجل الذي تود أن تكون؛ فليس كل الرجال رجالاً يعتز برجولتهم، أو أمثلة تحتذى.

إن أول الخطو في الاتجاه الصحيح في حل إشكالية الرجل والمرأة، هو أن تقتنع المرأة بكونها امرأة، وبدورها في المجتمع، حيث تشكل فيه القطب الآخر، الذي لابد منه لاستمرار الحياة وجوداً وتطوراً وسعادة. وقبل أن يتساءل أحد عن السبب الذي نبدأ به الكلام حول هذه القضية عن المرأة، ونخصها بهذه المسؤولية، أقول إن السبب أساسي على بساطته؛ وهو أن على من يطلب أمراً يحتاج لكي يلبي الآخرون طلبه أو يسمعوه على الأقل، إلى أن يكون مقتنعاً ومقنعاً؛ حتى لو كان هذا الأمر حقه الطبيعي، كما هو في حال المرأة؛ إذ تؤكده ضرورات الحياة وشروطها ووقائعها.

إن المقدمات الصحيحة تؤدي إلى نتائج صحيحة في ظروف ملائمة. واقتناع المرأة بأنوثتها(بوصفها امرأة وليست رجلاً)، يجب ألا يعني أنها أقل من النصف الآخر: الرجل؛ وبالتالي عليها أن تتخلص من عقدة

النقص هذه التي تجعل من الحالة مَرَضيةً يصعب معها الحل. ويكون الأمر أكثر إيجابية وفائدة حين تسعى المرأة إلى أن تكون امرأة متميزة..

ومما لا شك فيه إطلاقاً أن المرأة ستعاني من صعوبات جمة في سعيها كي تكون مميزة، حتى بين بنات جنسها.. ولكن؛ من قال إن الرجل الطامح الساعي إلى التميز لا يلاقي مثل هذه الصعوبات؟!

وهذا لا يعني أن الحال متساوية في المعوقات والمثبطات، ولكن يجب القبول بأن للتميز ضريبة، وللفعل المتقدم ردود أفعال منها ما يشد إلى الوراء. ولا بأس من أن نفرق بين الشخص فرداً مستقلاً خلواً من المسؤوليات، وبين حاله ــ سواء أكان امرأة أو رجلاً ــ في مؤسسة ما، تحتاج، كي تعيش وتنجح، إلى أن يكون فيها حد أدنى من النظام والانضباط وتحديد المسؤوليات والنهوض بها. وهذا ينطبق على حال الرجل والمرأة في مؤسسة نوعية هي مؤسسة الزواج أو الأسرة. مع تقدير خصوصية هذه المؤسسة وأهمية نجاحها، وضرورة تقسيم المسؤولية أو تحديدها.

واستطراداً أقول: يمكن للرجل العازب أن يتصرف ويسلك دروباً يصعب عليه سلوكها بعد الزواج، وعليه أن يلتزم بما يفرضه عليه دخوله هذا (القفص) الذي قد يكون ذهبياً وقد لا يكون.

ومن الطبيعي أن تضيق القيود أكثر على المرأة المتزوجة منها على المرأة العازبة، إلا إذا كانت مملكة الزواج خاوية وأوتادها مخلخلة.

الرجل المتزوج ينال الكثير من الكلام والملاحقة والانتقاد، إن خرج عن حدود ما تفرضه العلاقة الزوجية من احترام، وكذلك الحال بالنسبة للمرأة المرتبطة.

وهل قليلون هم الرجال الذين حالت ارتباطاتهم ومسؤولياتهم الأسرية دون أن يصلوا إلى ما كانوا يرغبون؟!

وكثيرات هن اللواتي جاءهن (النصيب) في أول الطريق أو منتصفه، فكففن عن متابعة الانطلاق، وقد يكون هذا برضاهن أو بتأثيرات الظروف المحيطة أو حب الاستقرار والسترة(!).

والكلام هذا كله حول قضية المرأة والرجل، لا يصح إلا حين نتكلم عن امرأة جديرة ورجل جدير؛ حينئذٍ يمكن أن نقول لهذه المرأة وذاك الرجل: يجب أن تتفاهما وتَقْنَعا، لِتُقْنعا بإمكان قيام علاقة متبادلة الاحترام.

ومن الطبيعي أن لا يصيب هذا القول آذان رجالٍ غير مستعدين للحوار والمناقشة، أو نساءٍ عاجزات عن إمساك خيوط اللعبة المحترمة.

ومن المؤكد أن امرأة تُزوَّجَ عنوة، هي خارج الحدود التي تمكنها من أن تدخل حلبة المنافسة الشريفة، وأن رجلاً لا يملك مقومات الوعي أو العيش الكريم، لن يكون طرفاً نزيهاً في الحلبة ذاتها.

إن الكلام العام في هذه المسألة لا يخلو من النق والشكاية ورفع المسؤولية عن النفس وإلقائها على الآخرين.

إن تحمل المسؤولية أمر في غاية الأهمية، وإذا كان صحيحاً أن استعمالاً سيئاً للحرية لا يغير من حقيقتها

وضرورتها وأهميتها وموضوعيتها، فصحيح أيضاً أنه يترك آثاراً سلبية على الذين يراقبون أو لا يجرؤون. ويخفف الحافز المطلوب ويشوش الصورة، ويعطي ذرائع ثمينة للذين لا يريدون، أو يعارضون، أو ينتظرون الفرصة للانقضاض.. وهم ليسوا قليلين على أية حال..

]]]

الرجل والمرأة: المسؤولية

حال المرأة مع الرجل كحال أي نائب مسؤول مزمن، له العمر ذاته والقدم الوظيفي عينه والشهادة ذاتها، وهو يظن أن هذا المنصب خليق به أكثر، أقول أكثر لأن هناك تاريخاً طويلاً من الإحساس بالظلامة والغبن من جراء الاستفراد بالسيادة المطلقة من قبل المسؤول/ الرجل المتمثلة بعدم السماح للنائب /المرأة بالتوقيع حتى في غيابه، إلا على أمور بسيطة من باب تحصيل الحاصل!

ويزيد أمر الإحساس بالاضطهاد تعقيداً، شعورُ هذا النائب/ المرأة بأن سلطة المسؤول دائمة. ولن يتم التخلي عنها في المدى المنظور، مما يخلق لدى المرأة والنائب رغبة دفينة دائمة متزايدة باقتناص الفرص لإبراز الجدارة والإمكانية. وبما أن الطرق ضيقة والمنافذ صغيرة، فإن أية محاولة من هذا القبيل تبدو لدى المدير والرجل خروجاً كبيراً على الصلاحيات، وتجاوزاً خطيراً على القوانين التي لا يني يسنّها وينجّرها لتخدم حالته. وهذا ما يدفعه دفاعاً عن الذات المتضخمة، وخوفاً من نيّة هذا النائب المبيّتة واستعداداته الدائبة للوثوب إلى موقعه والحلول مكانه، على التشبث أكثر بمنصبه،

وإغلاق كل المنافذ التي يمكن أن يتسلل منها حضور هذا النائب/ المرأة مهما كانت. وتستمر الأمور على هذا المنوال، وضمن هذا الفهم القاصر من المسؤول ونائبه لطبيعة الحياة والأشياء والمشاركة والمسؤولية، المسؤولية التي هي في رأيي القضيّة الأهم بين الرجل والمرأة.

فالرجل المسؤول عن كل شيء دكتاتور بالضرورة. والمرأة غير المسؤولة عن شيء عالة على نفسها وعلى الرجل!

إن الإحساس بالمسؤولية إحساس بالشخصية، بالحضور.. إنه إحساسٌ بالوجود المادي والمعنوي لا مناص منه، كي يكون للحياة معنى، وكي يكون أمر البحث عن شروط أفضل لهذه الحياة مشروعاً وممكناً وجاداً ونشيطاً.

وصيغة المشاركة من دون هذا الشعور الرضي بالمسؤولية غير واضحة وغير عملية، وبالتالي لا بد من حكم أحدهما، وطبيعي أن الرجل لن يتخلّى عن الحكم ليسلمه كاملاً لها. ولا تعدّ المرأة أية مبادرة لإعطائها فرصاً أكبر في هذا الأمر كافية. وفي الواقع، نرى أن المرأة المديرة في الوظيفة أكثر قساوة من الرجل المدير، والرجل المسؤول أكثر مرونة من المرأة المسؤولة، وقد قرأت إحصاء عالمياً عن دراسة ميدانية تؤكد هذا الأمر..

وفي الواقع أيضاً نرى أن أولاد الأسرة التي يكون فيها الأب ضعيفاً والأم قوية مسيطرة، ليسوا أسوياء تماماً؛ أي أن المرأة الحاكمة بوجود زوجها (بوجود الرجل على التعميم).. تكون مواقفها أقل سلامة،

وتربيتها غير ناجحة، لأنها ناتجة على الأغلب عن رغبة بالتسلط والانتقام.

أما الحالات الأخرى، تلك التي يغيب فيها الرجل طويلاً لأسباب كثيرة، أهمها الموت، فإن المرأة في أسوأ شروط الفقر تستطيع القيام بواجبها بمقدرة وإمكانية مشهودة، حتى لو اضطرت للقيام بأعمال خارج البيت. وغالباً ما يكون الأولاد ناجحين مستقرين ذوي إحساس عال بالمسؤولية، والبيت هادئ منضبط..

ولاشك في أن المسؤول /الرجل يستعين على سلطته بإمكانيات التحرك حركة طبيعية فيزيولوجية يتفاخر بها، ويستزيد منها في دفاع عن حقه (المشروع)، في الوقت الذي تتعرض المرأة في معرض ممارسة حياتها إلى حالات تجعلها أقل قدرة على الحركة أو الفعل، أهمها حالات الحمل، على الرغم مما لهذه الحالات من أثر وأهمية في مسار الحياة التي تخص الرجل أيضاً.

وطالما أن الأمر مستمر على هذا المنوال، المسؤول مسؤول والنائب نائب، ولا نواب آخرين لهم مطامح أو إمكانية في السيطرة، ولا مجلس إدارة يحكّم بين الاثنين (عادة يتأخر دور الأولاد)، أو يقارب بين وجهات نظرهما، فإن شكوى النائب من الظلم التاريخي من قبل المسؤول والتفرد والتجاهل مستمر، وشكوى المسؤول من عدم جدارة النائب وعدم كفاءته وسوء نواياه تتعالى.. والأمر يمضي من دون حلول مدروسة ناجعة.

]]]

العمل

قُيّض لي خلال ممارستي مهنتي /الهندسية/ التعرف عن كثب إلى كثيرين من أصحاب المهن العديدة، وأمكن الاطلاع، في أثناء ذلك، على المَهَرَةِ منهم أو المتدربين، الموهوبين أو الممارسين لعدم توفر العمل البديل؛ ومنهم أصحاب شهادات لا تتناسب مع مهنهم، وآخرون لم ينالوا حظّاً من التعليم.. كل هذا طبيعي، وطبيعي أيضاً أن تكون أخلاقهم متباينة، ونفسياتهم متنوعة، وسلاستهم متمايزة وكذلك قدراتهم على العطاء..

وما كان يقلقني، ولا يزال، أمر مختلف، أمرٌ أحسب أنه الأساس في كل عمل مهني أو وظيفي، عضلي أو ذهني، إلزامي أو طوعي؛ أقصد احترام العمل.. هذا الاحترام الذي يتجلّى في مدى تفاعل المرء مع عمله، وتآلفه مع عناصره، وأدواته، وحرصه على تنفيذه، حاضراً كان المسؤول عنه أم غائباً، طيّباً أم شريراً..

فأنا لا أستطيع أن أفهم كيف يرضى الطيّان ـ مثلاً ـ أن يترك عمل الأمس من دون سقاية، وهو يعلم علم اليقين أن هذا العمل، الذي أساسه الاسمنت، إذا لم ينل قسطاً وافراً من المياه، يفقد الجزء الأهم من جدواه ومعناه؛ بل كأنه لم يكن، ويمكن الاستطراد في عدم

الاعتناء بأفقية العناصر أو شاقوليتها.. بنظافة المواد أو جودتها.. الخ، وهذا الأمر يمكن تمييزه عن الغش المقصود؛ إذ إن هذا المنفّذ لن يستفيد من عدم قيامه بذلك، وليس له من ورائه مكسب. ولكن سيكلفه وقتاً ما إضافياً، وهو ليس كثيراً على أية حال.. وفي اعتقادي أن كل المسوغات تسقط؛ سواء أكان الأجر غير مناسب، أم كان الجزء المنفذ غير مهم، أو في مكان غير منظور، أو قليل الاستعمال..

الأمر يتعلق بأخلاق هذا المنفّذ، باحترامه لنفسه أولاً، ومن ثم لعمله.. وللقائمين عليه، ولمن سيستثمره في النهاية.. إنها علاقة إنسانية صرفة، والإساءة فيها إساءة للإنسانية قيماً وتعاملاً وعلاقات.. والأمر ينسحب على الأعمال الأخرى كلها..

وبالطبع، لن نتطرق إلى من يقوم بالغش والاحتيال بإنقاص المواد أو الاستبدال بها مواد أضعف، أو إخفاء العيوب قصداً؛ فهذا خارج المعادلة الأخلاقية الإنسانية أصلاً، ولا يستحق خطاباً إنسانياً، أيّاً كان موقعه ومستواه.

ولا بأس من الدخول في الشؤون الأخرى، في مختلف الأعمال والوظائف والإدارات؛ إذ تسمع أحياناً أقوالاً مثل: الراتب لا يكفي سوى أيام، وبالتالي غير مطلوب منّا القيام بالواجب إلاّ بمقدار هذه النسبة! إنه لمنطق غريب عجيب؛ فما ذنب الطلاب ــ مثلاً ــ حتى نضيّع عليهم دقائق عديدة في كل حصة بالحجة تلك؟! وما ذنب المراجعين الذين يُقذفون أياماً من أجل أعمال يمكن أن تنتهي بسهولة؟! وما ذنب الإنسان فيناً الذي يتعرض للإهانة حين نفكّر بمثل هذا التفكير؛ ناهيك عن القيام به.

من جهتـي، أحسّ بنشوة غـامرة حـين أسـتمع إلـى وشوشـة عنصر من البناء حين يسقى، وأشـعر أن مـاءً زلالاً ينـداح في حلقـي الظـامئ، بغض النظـر عن علاقتـي بالقـائم بهذا العمل، أو المستفيدين من هذا البناء، حتى لو كانوا ممـن لا أرتـاح إلـيهم، ولسـت راضـياً عـن طريقـة تـأمين المـوارد اللازمة لهذا المنشأ..

وأحس بقلق وانشغال، حين أفكر أن عنصراً لم يكتمل تصـلبه بعـد، لـم ينـل مـا يحتـاج إليـه مـن مـاء.. وإن كانـت علاقتي به ستنتهي قريباً، أو ليس لـي أية علاقة بـه..

لقد قال رسـول الله ρ فـي مـا معنـاه: إن الله يريـد مـن أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه ويكمله..

]]]

كفّو الملام!

لمـاذا هـذا اللـوم المـبطن، وهـذه النظـرات التـي لا ترحم؟!

دلّوني علـى مسؤول اعتـذر عن (مهمـة) أو اسـتقال من نفسـه! دلـوني علـى رجـل قـال: عيّنـوا غيـري، أنـا لا أستحق هذا المنصب، أو تلك المسؤولية!

هل هذا يعني أن جميعهم مناسبون ومؤهلون؟!

لو كان الأمر كذلك، لكان الحق في ما نـراه ونسمعه ونعانيه على (الطّليان) فعلاً!!

أنـا أعتـرف أنـي لسـت أهـلاً (منطقيـاً)، ولكـن هـل المرشحون أفضل حالاً مني؟!

أنـا أعرف أنـي لست الأكثر إمكانيـة ومواهـب، ولا الأهم شـهادات وعلامـات.. وسعيت لذلك بكل مـا أملك؛ وما أملك ليس هيّنـاً، كمـا تعملـون وتوشوشـون، وأنـتم مـا قصّرتم، أعتقد أنكم استخدمتم طرائق مختلفـة، وأسـاليب متنوعة.

وأعتقـد أن علـيكم أن تتواضـعوا قلـيلاً لترضـوا بمسـؤوليات أخـرى، ربمـا كانـت أقـل وجاهـة، وأكثـر دسماً!!

تلومونني إذ أعيّن فريق العمل الذي يساعدني، وتحتجّون على اختياري لعناصره، وكأنكم تريدون أن أعيّن من يستحقون حتى منصبي هذا! هل هذا كلام حق يُراد به باطل؟! لو جئتم مكاني، هل تفعلون ذلك؟! دلّوني على من يفعل مثل هذا إلا إذا كان مجنوناً!

فهل يأتي المرء بالقرد إلى طحينه؟!

لو جئت بأناس يستحقون، فسيكونون منافسين حقيقيين، وسيشوّشون على أوقاتي وسيادتي، ويشوّهون واجهتي التي يجب أن تكون بهيّة بوجودي، وناصعة الزهوّ بحضوري، ومتلألئة بقامتي وحدها..

يجب أن أكون زهرة مميزة؛ وكيف يكون ذلك إذا لم يكن مجاوريّ أشواكاً أو قشّاً؟!

ويجب أن يكونوا مستعدّين للقيام بهذا الدور برضاً وامتنان!

قد تتساءلون: كيف توصلت إليهم؟! سؤال أجده ساذجاً. أولاً أنا قريب منهم، وثانياً هم يسارعون إلى تقديم شخصياتهم ومواهبهم، فأختار منهم الأكثر جدوى.

يمكنني أن أختار بين أقوى الواسطات، وأهم المغريات، وأقل المعارضات.

أنا أفهمكم، لستم حريصين على المصلحة العامة أكثر مني، ولكن قصدكم من ثرثرتكم ومشاكساتكم تشويه صورتي، وعرقلة مسيرتي، والتأثير على اندفاعي؛ تقصدون إلهائي بمشاكلكم الصغيرة وأقوالكم الكبيرة عن مهماتي الصعبة، ومسؤولياتي الضخمة، وواجباتي المستجدة.

هل نسيتم أن عليّ تلبية دعوات الولائم، ومناسبات الوجهاء زملائي؟! تريدون مني أن أقصّر في هذا حتى تسودّ صحيفتي، ويغضب مني القيّمون والمقوّمون، وأتهم بنكران الجميل، والخروج عن الطاعة، وخيانة الثقة التي حُمِّلْتُها.

لكن هذا بعيد عنكم؛ فهل نسيتم أنني لاعبٌ مثلكم، أفهم اللعبة وقوانينها وشروطها، كما يفهمها المحكّمون؟! وبالتالي لا يوجد سببٌ يدعوني لارتكاب ما يستوجب البطاقات الحمراء!

من يستمع إليكم ولا يعرفكم، يقول: حرامٌ أن تُستَبْعَد هذه الطاقات عن ماكينة الفعل، وحرامٌ أن يُتغافل عن جَدارات ورؤىً واندفاعات ضرورية..

لكني أعرفكم، وأعرف المنحى الذي تسيرون فيه، والسلوك الذي تفضلون، والأهداف التي إليها تسعون.

أنا لست جديراً بهذا، ربما كانت هذه الحقيقة التي أعرفها مثلكم أو أكثر، ولكن الحقيقة أيضاً أنكم غير جديرين أيضاً، وهناك ـ وهذه هي الحقيقة الكبرى ـ من هم جديرون، لكن تعوزهم مؤهلات أخرى، هؤلاء لا يثرثرون ولا يشاكسون ولا ينافقون، ولا يلفّون أو يدورون، ويتركون أمورهم لمن يُقدّر، ويصرفون جهودهم في العمل بصمت، مع ثقة بالنفس لا تجعلهم ـ رغم أنهم قد يكونون خائبين ـ ينتقمون من العمل والعاملين، والمعاملات والمراجعين، فأخلاقهم لا تسمح لهم بذلك.

]]]

الشخص

من دون أن نغفل عن أهمية العمل المؤسساتي؛ بل مع تأكيده وتأييده، لا بد من تأكيد أهمية العامل الشخصي، ودوره في أيّ موقع أو ميدان عمل نظري أو مادي. ويمكننا دائماً التمييز بينَ مجموعة من الأشخاص يحملون المؤهلات العلمية ذاتها، وخضعوا لدورات متشابهة، ولديهم القدم نفسه ربما؛ ففي الوقت الذي نرى بينهم من يستطيع إظهار شخصيته، بل فرضها بحيويته وجرأته واتزانه وجديته وإخلاصه، يفشل الآخرون في الإقناع بجدواهم، أو جدارتهم التي تدفع على تحميلهم مسؤوليات مهمة.

ولا يعني هذا أن المسؤوليات كلها في عهدة من يستحق، وأن اختيار أصحابها يتم دائماً بالبحث والتدقيق واحترام المعايير وتعميمها. مع ذلك؛ فإن صاحب الشخصية المحترمة كفاءة وسلوكاً وحضوراً فاعلاً، يستطيع جذب الأنظار إليه مع مرور الوقت. ولا بأس من تأكيد أنّ هناك أنظاراً حيادية منطقية دائمة التحديق، وربما البحث عن اطمئنان، وباستطاعتها تمييز الخضرة من اليباس، المثمر من العاقر، الجيد من الرديء، الجدّي من المستهتر، والجدير من المهزوز؛ يمكنها أن تدرك

هذا حتى لو لم يكن من يطلب منها ذلك، وقد تكون الأنظار هذه لأية أشخاص متواجدين في نطاق العمل ذاته، وقد لا تؤخذ آراؤهم بعين الاهتمام استقراء وتقويماً وتعييناً؛ في الوقت الذي يمكنهم الوقوف على الحقيقة أكثر من سواهم ربما؛ الحقيقة التي قد لا يصرّحون بها إلا لأنفسهم. وتلك مشكلة أخرى لها أسبابها الذاتية والخارجية، ليس الجبن والمصلحة واللامبالاة والسلبية واليأس من الجدوى سوى بعضها، إضافة إلى أن أحداً لن يسألهم، ولن يأخذ بآرائهم، رغم أنهم معنيون بذلك إلى درجة مهمة.

ولكي لا يبدو من هذا الكلام أن أمر الشخصية وقدراتها متعلق بأصحاب المناصب فقط، فإنني أبادر إلى تأكيد أن الأشخاص الآخرين في أيّ مفصل من مفاصل أيّ عمل، يمكنهم أن يجيدوا ويبدعوا، وتظهر بصماتهم بوضوح وجدارة، وتنعكس جدواهم على المؤسسة بشكل عام. وهذا يلقي تبعات إضافية على أصحاب المسؤوليات الذين يمكنهم أن يختبروا الإمكانيات، ويجنّدوها لدى جميع الأشخاص المتواجدين في إطار عملهم.

ومن الخطأ النظر إلى من هم في المواقع المتقدمة دائماً؛ حيث الشهرة والأضواء والإعلام، والعلاقات والمحسوبيات والامتيازات، ومشاعر الحب والكره والحسد والغيرة والتقدير المبالغ به، والاحترام الذي قد يكون بعضه مزيفاً؛ بل من الضروري الاهتمام بجميع الأشخاص، وفي مختلف المفاصل؛ فالفني البسيط يمكن أن يُنجِحَ عملاً عظيماً، أو يربكه. كما أن باستطاعة أي عازف في فرقة أن يجعل اللحن الذي تؤديه تلك الفرقة بكاملها نشازاً، مهما كانت جدارة قائدها وموهبته.

إن الثقة بالنفس تضاعف من قدرة أيّ شخص على تقديم ما لديه من إمكانية، وفي أيّ مجال مهما بدا بسيطاً وعادياً. وهذا سيجعل المردود أفضل بما لا يقاس.

ومع احترامي الكامل لكل الشرائح العاملة، أجد أن لا بأس من أن أذكر بعض مشاعر الاغتباط التي راودتني أثناء زيارة عمل لإحدى الدوائر، ولم يكن اغتباطي في من جراء مقابلة المدير أو المسؤولين الأقل مرتبة؛ بل من حيوية المستخدم ولطفه في تلك الدائرة؛ ففي تحيته مودّة من دون معرفة، وفي ترحيبه بشاشة، وفي قيامه بمفردات مهمته رضاً يمكنك ملاحظته، ويمكن أن ينتقل تأثيره إليك.. على العكس من الكثيرين في المحيط عينه؛ إذ تحسّ أن الدنيا سواد من مجرّد سؤالهم أو الاقتراب من ممالكهم، أو حتى تحيتهم التي قد لا يردّون بأقل منها.

لكل منا شخصيته وقدراته التي تختلف وتتنوع وتتمايز، وباستطاعة أي منا أن يظهر ميزاته بالطرق السليمة الهادئة الحريصة على مصلحة العمل، من دون أن يكون في الأمر ادّعاء أو مبالغة أو وهم أو محاولة النيل من الآخرين، الذين قد يعتقد أنه يفوقهم مواصفات ومزايا وخبرات، وإمكانيات المبادرة والمتابعة، رغم أنهم يفوقونه كراسي وامتيازات.. وقد يكون هذا صحيحاً بنسبة أو بأخرى، وقد لا يكون.

ربما نكون بهذه الطريقة أقدر على الإقناع، حتى لو كانت لدى الآخرين طرق أخرى..

]]]

المبادرة الشخصية والخلاص الجماعي

من دون أدنى شك، وقبل أيّ كلام، لا بد من تأكيد أنه لا بديل عن العمل المؤسساتي؛ ففيه فرص أكبر للاستفادة من الكفاءات والخبرات، إذا ما أتيح لها ذلك. ولاسيما أن كثيرين من أصحاب القرار في الدوائر والمؤسسات، يفضلون إبعاد المنافسين المحتملين وتهميشهم، وفي هذا خسارة مضاعفة: افتقاد للإمكانيات التي استهلك في سبيل إيجادها الكثير، وخيبة لدى أصحابها، وخسارة إضافية تتمثل في المثال الذي يسود، وربما يصبح مساراً مبرمجاً؛ من يظهر فهماً ومسؤولية وإمكانية وجرأة يتم تجاوزه، وبالتالي، يصبح المطلوب والمرغوب الحال المغايرة، وما أدراك ما الحال المغايرة؟!

إذن، لا بد من العمل الجماعي، الذي يهتم بمختلف الآراء والأفكار، ليتم اختيار الأفضل والأكثر توافقاً وانسجاماً وإقناعاً، مع احترام صاحبه وتقديره على ذلك، وربما مكافأته مادياً ومعنوياً.

ومن هنا تظهر أهمية الشخص الذي يتحمل المسؤولية بجدارة وفهم وتفهّم، ويمكنه القيام بالمبادرة

الشخصية التي قد تفتح أبواباً لم يتجرّأ على طرقها أحد، وقد ترسم مسارات لم تخطر على بال الآخرين.

ويمكن أن تكون هذه المبادرة من جانب المسؤول الأوّل في الدائرة أو المؤسسة، وقد لا تكون. ولكن التجارب والوقائع تؤكّد أن المسؤول الأول، حين يكون مبادراً، تكون النتائج أفضل؛ (الكثيرون من المرؤوسين ينفّذون أو يباركون، لأنها أوامر تأتي من فوق!)..

وقد تكون هذه المبادرة /ويجب أن تكون/ للبحث عن الإمكانيات الموجودة قريباً، قبل أن يُبحث عنها أبعد.. والقريب هذا لا يعني القرابة تحديداً، أو الممالأة، والطاعة والولاء، بقدر ما تعني الاستفادة ممن هم في الدائرة نفسها، أو المؤسسة عينها، ولم يتح لهم أن يعبروا عن أفكارهم، أو لم يتجرؤوا على إظهار مواهبهم، وهم يقضون الوقت والعمل في تنفيذ آلي لواجبات أو أوامر، أو انتظارها، أو التهرب منها.

إن أهمية الشخص، في الموقع الذي يستطيع فيه أن يبادر منطلقاً من رؤية ثاقبة، ومصلحة عامة تأمل في خلاص جمعي، أهمية كبرى. وهو حين يقدم على خطا محسوبة ومسرعة، من دون أن يكون في حسبانه الاستعراض والبهلوانية، ورضا فلان، ومصلحة آخر، يكون قد ساهم في حرق مراحل مهمة، والقفز فوق الكثير مما يؤرق التطور، ويعيق تسارع وتيرة التقدم والتحديث.

إننا نحتاج إلى مثل هذا الشخص في مفاصل كثيرة؛ منها ما ترهل نتيجة إدارة مزمنة غير جديرة لم يحاسبها أحد، ومنها ما فقد مرونته وقابليته للتفكير والتصرف،

نتيجة سذاجة إدارية لا تعرف ماذا تريد، ومنها ما لا يتاح لمن فيها أن يتحرك بمسؤولية حقة؛ إذ توجه سهام الريح وفق المواسم والمصادر والمصالح التي لا تنتظم البلاد..

كم نحتاج إلى إدارات تستطيع القيام بمبادرات خلاقة تروم الخلاص الجماعي، وتسمو إلى فضائه، لو على حساب خسارة امتيازات خاصة يمكن أن تكون كبيرة، إن هي رضيت بأن تقوم بمبادرات معاكسة، أو بالكفّ عن المبادرات الإيجابية أو السعي إليها، أو الامتناع حتى عن التفكير فيها، أو تفرّغت لإعداد المبررات الكثيرة التي تعطي صك البراءة من تهمة العجز والسلبية.

وهنا تظهر أهمية الجهات المقوِّمة والمرشِّحة والمقرِّرة في اختيار أصحاب المسؤولية والمهمات من بين الكثيرين المؤهلين لذلك، الذين تكاد لا تخلو منهم دائرة أو مديرية أو مؤسسة، على الرغم من الكثير من التصنيف الظالم، والترتيب الذي لا تنظمه الأصول والحقائق والإمكانيات؛ حيث لا تخفى، ويجب ألا تخفى لدى هذه الجهات خاصة، أهمية الشخص في الموقع، ولا يمكن التغافل عن الفروق التي تظهر جليّة بين إنجازات الأشخاص في المواقع المتشابهة أو المتماثلة، وفي ظل الظروف ذاتها والقوانين عينها، والإمكانيات التي قد لا تختلف كثيراً.. لكن الذي يختلف أشياء وأهواء..

]]]

القانون!

.. ومن المسوّغات التي يسوقها بعض أصحاب النفوذ من المسؤولين أو المالكين أو أصحاب الفعاليات المؤثرة، أنهم يقدمون خدمات للمحتاجين، ويؤمّنون فرصاً للعاطلين، ويستخدمون إمكانياتهم وعلاقاتهم لتأمين الحقّ لأصحابه..

قد يكون في مثل هذه المواقف حقّ وقبول، وربما دغدغة للعواطف والمشاعر التي يحسن البعض استثارتها؛ لكن علينا أن لا ننسى أنه قد يكون وراء الأكمة ما وراءها!

ففي سياق خدمة محتاج، يمكن أن نخدم الكثيرين من غير المحتاجين، ونحرم محتاجين آخرين! وفي ظل تشغيل العاطلين نعطّل القادرين أكثر؛ أما تأمين الحق لأصحابه، فهي مسؤولية الجميع؛ بل واجبهم.

وعلى الجميع السعي المتواصل والجدي لا لإعطاء البعض من أصحاب الحقّ حقوقهم؛ بل من أجل أن يحصل الجميع على حقوقهم؛ أي من أجل أن يكون القانون سيداً وسائداً.

ليس لأننا حَرْفيون متزمتون، كما يودّ المتضررون أن ينالوا من أصحاب هذه الدعوات؛ بل لأن القانون

واسطة من لا واسطة لهم؛ هذا هو الأمر بكلّ وضوح وبساطة وتأكيد..

وهؤلاء هم في غالبيتهم من الناس الذين يسعون ويجدّون ويكافحون من أجل إمكانية العيش الكريم، وهؤلاء هم الذين لا ينفقون أوقاتهم في التملق والتزلّف وتقديم الولاءات، وهم الذين لا يستهلكون ما لديهم في تكوين علاقات وتشكيل (صداقات)، تؤثر سلباً على حسن تطبيق القانون، وهم الذين يؤمنون بإمكانياتهم، ويثقون بأن هناك من يريد حقاً أن يحصل كل مجتهد على نصيبه الذي ينسجم مع جهده، وأن هناك من يسعى إلى أن يوظف الزاد والرصيد والقدرات في المواقع التي تستحقّ، مهما بدا من عثرات وخيبات، ومهما بدت الطريق وعرة، ولاح الجو سديمياً.

والقانون، على الرغم من صرامته وعبوسه وجفافه؛ فإن ما يميّزه مساواته للكائنات وفق ظروفها وإمكانياتها. وهو لا يهادن فلاناً، ولا يقسو على آخر، إلا وفق المعايير التي تنظّمه، ومدى مواءمتها للحالة، أو مخالفتها لها.

والقانون لا يعرف تفريقاً وتمييزاً، إلا إذا كان لدى القائمين عليه عرج في الرؤية، أو عسر في الفهم، أو تعثّر في التمييز بين الحق والباطل، أو النزوة بالتحيز أو الرغبة بذلك؛ فيتحايلون عليه، ويفسّرونه وفق أهوائهم ومصالحهم ورياحهم.. في حين يجب أن تكون محصلة تطبيق القانون في جانب الغالبية، وبالتالي والضرورة، في مصلحة المجتمع والوطن.

وإذا ما كان يمكن أن يُشتكى من ثغرات في القانون، أو قصور في إحاطته بمختلف الجوانب والظروف، وتناوله التفاصيل جميعها؛ فليس على من يريد ويعرف ويستطيع، استغلالُها والتذرع بها للالتفاف على القانون، وتجييره، وليس من المقبول التحجج بأن ليس لدى القانون روح، لننفخ فيه روحاً تناسب أذواقنا وحاجاتنا، ومصالح من تصب سواقيه في بحيرتنا.. ولو بعد حين؛ بل على الجميع، وفي مختلف مواقع القول والتلميح والتصريح، والمناقشة والاعتراض والاقتراح والتصويت والتشريع، أن يحددوا السبل المناسبة للتعديل، حيث يمكن، شرط أن تنسحب نتيجة ذلك كله على العباد كلهم في الشروط نفسها؛ لا أن يضعوا تقاويم يتم تداولها لتحرّفَ القوانين، وتروِّجَ استثناءات، وتنصِّبَ ولاءات، ويتوَّج أصحاب.. بصرف النظر عن الإمكانية والمقدرة والقدرة على العطاء في الحدود الدنيا؛ ناهيك عن الغيرية والمبادرة والاندفاع والانطلاق لحرق المراحل التي تحتاج إلى ظروف وقدرات وشخصيات وجرأة استثنائية..

]]]

بين القول والفعل

إذا كـان فـي قـول الحـق والمجـاهرة بتأييـده عسـرٌ وتردد، فما بالك في فعل ما ينسجم مع الحق، أو القيام بما يدعم سيادته أو يضمن سلامته؟!

ثمة مسافة بين القول والفعل، تختلف أمداؤها حسب الأشـخاص والمواقـف والمواقـع والبيئـات والمسـؤوليات والإمكانات..

تتضـاءل هـذه المسـافة حـين يسـوّغ القـولُ الأخطـاءَ والسـلوكات المنحرفـة بحجّـة تغيّـر الظـروف، ومسـايرة التيـار، والانفتـاح علـى متطلبـات الحيـاة وغاياتهـا، وربمـا عبثيتها.. ويزداد أصحاب هذه الأفكار، وتتكاثف فعالياتهم يوماً بعد يوم..

وتتضـاءل المسـافة أكثـر حـين يعـوم الحـديث فـي الاتجاهات المختلفة، منتقلاً من سمت إلى آخر، حتى لو كان السمتان متباينين أو متعاكسين؛ فلا تكاد تقبض على ملامح للمتحدث في جانب، حتى تجده منطلقاً في جانب آخر بالحماسة عينها، أو بما يزيد عنها..

ومن المؤسف أن نسبة هذه الشريحة ليست قليلة، وهي ذات طابع هلامي، لا أساس لها ولا موقف ولا جوهر، سهلة التشكل والقولبة، وتصلح لهيئات كثيرة، ومسؤوليات متعددة، ولظروف مختلفة، ولمواقع مهمة!

أما حين يأخذ الكلام جانب المنطق والعقل والواجب والمسؤولية، فإن المسافة بين قول القائلين المتحمسين وممارساتهم، تبدأ بالامتداد اللامحدود. وستجد نفسك، وأنت تحاول الوقوف على تلك المسافة، أو تمييزها، أو تلمس منعطفاتها، تهِن، أو تضيع، أو تيئس.

ومن دواعي التحسر أكثر، أن هذه الشريحة ليست ضئيلة النسبة، أو الحضور، أو الفاعلية، أو الصوت أو المسؤولية أو القرار.

ومن أبناء هذه الشريحة من يعتلون المنابر المتعددة والمتنوعة مدافعين عن القوانين والحقوق والواجبات، وما إن ينزلوا عنها، حتى تصبح شطارتهم منصبّة على الالتفاف على هذه القوانين، وتأمين الاستثناءات التي ليست لوجه الله، وتصبح قدراتهم وسمعتهم ومكانتهم وعلاقاتهم مكرسة جميعها لتخليص المجرم وتبرئة المرتكب، أو تسويغ الفساد والمفسدين عملاً وممارسة؛ وهنا الطامة الكبرى!

يمكنك أن تلاحظ ذلك من دون عناء، وليس من دون أسف وقلق وانقباض وتساؤل.. في مختلف الاتجاهات والمجالات؛ حتى تلك الجهات التي يفترض فيها أن تراقب، وتفسّر، وتحاسب، وتقوّم، وتشرح، وتقرر.. وهذا ما يجعل الخوف من أن احتمالات التغيير يمكن ألا

تكون كما يُرتجى، ومساعي التحسين يمكن أن تجانب المأمول، أو تتغافل عن الأفضل.

وفي غمرة هذا الأسف الذي تستشعره دائماً، وفي خضمّ الفوضى المقصودة، ربما، لتضييع الدروب الصحيحة، والأفكار والقيم والتقاليد النبيلة، لن تعدم وجود أناس صادقي النية، نظيفي اللسان واليد؛ منهم الصامتون، وفي صمتهم تعبير عن يأس وخيبة، ولكنه صمت يمكن اتّهامه أيضاً بالمشاركة في الفعل؛ إذ لن يكون الصامتون في منجى من الأذى. وقد كان، وما يزال، الساكت عن الحق شيطاناً أخرس!

ولن نعدم وجود أناس صحيحي العزم والعزيمة: يقولون الحق، ويسعون في سبيل تحقيقه، ويمارسون ما صدقوا أنفسهم، وما عاهدوا الإنسانية والكرامة والله على القيام به، ومن دون ضجيج أو علاقات، أو طقوس خاصة إعلامية أو اجتماعية أو اقتصادية.. ولا جحافل من المدّاحين.

وهم بلا شكّ، ليسوا من دون ضغوط نفسية وحياتية هائلة: معنوية شائكة محاصرة، وماديّة خانقة قارسة؛ يمكن أن تبدأ حتى من أقرب الناس إليهم في البيت، ربما، أو العمل، أو أماكن الحضور والمعايشة.. ولا تنتهي عند مستسيغي التسويغ، ممتهني التمرير، متبرّعي النصائح والوصايا، عارضي الخبرات والخدمات والإمكانيات التي لا تتعلق بالشهادات والالتزام والجدّية والمسؤولية. مع ذلك، فإن هؤلاء المصابرين المقرنين القول بالعمل؛ بل المقدمين الفعل الحق على القول، يحاولون أن يؤمنوا من رضا النفس والضمير والقناعة

والإحساس بالمسؤولية والكرامة البديل المجدي؛ فهل ينجحون في ذلك؟!

]]]

نعم/ لا

تقول القصة: كان رجل يتحدث إلى آخر. المتحدث يتسارع في كلامه، فتتداخل الكلمات، ويضيع المعنى. في الوقت الذي يهز فيه المتلقي رأسه إلى الأسفل فالأعلى، ويقول عند كل فاصل قصير: إي.. إي.. نعم.. نعم..!!

بعد مرور وقت طويل من القول والموافقات، توقف المتكلم، اقترب من الآخر، ربت على كتفه بشيء من الغيظ:

ـ "عمي.. هذي بدها لا"

لا شك في أن المتحدث كان مسروراً أول الأمر من موافقة الآخر، وعدها دليل أهمية واقتدار. وربما حفزه ذلك على الاستزادة والاستطراد والمبالغة.. لكنه في غمرة النشوة، استطاع ملاحظة آلية الرد، وبلاهة الاستجابة. فأحس في لحظة وعي بشحوب الصورة التي تضخمت، وبقتامة الواقع الذي كان براقاً. قد يكون السبب في اكتشافه بداهة القول الذي يحتاج "لا" من دون لبس. فتوقف، ولفت نظر المتلقي إلى ضرورة أن تكون الإجابة متوافقة مع الكلام الذي يقال، حتى لو كانت لا تعنيه مباشرة.

تخطر لي هذه الحكاية في أثناء لقاءات كثيرة، واجتماعات متكاثرة، وخلال ندوات ومناظرات وحوارات.. فكم من الموافقات تهرق من دون أن تكون واعية ما يقال، وما ينجم عن هذه الموافقة أو تلك من ممارسة الغلط واستمراء الأخطاء ومضاعفة الخيبات..

إن موافقة من غير تبصّر مشاركة في الفعل الخاطئ. وإذا كنا لا نعلم ذلك، فتلك مصيبة؛ أما إذا كنا نقول: "نعم" في الوقت الذي يقول فيه المنطق والحال والواقع: "لا"، ونعرف هذا، فالمصيبة أعظم!

ولا يعني هذا الكلام أن نقول: "لا" في الوقت الذي تكون فيه الحال: "نعم"؛ أو حين لا نعرف الحيثيات، ولسنا على دراية بالتفاصيل والأسباب والغايات. كما لا يجوز أيضاً أن نقول حينئذ: "نعم". لكن السكوت ليس الحل هنا؛ بل لا بد من التدخل للاستفسار والاستيضاح، وطلب الوقت الكافي للمناقشة والوصول إلى قناعة مشتركة، أو قناعة الأغلبية التي توافق أو لا توافق بخلفية واعية وتفهم واقتناع.

وليس السكوت أقل كارثية.. فمن المألوف أن يعدّ علامة للموافقة، في حين أنه قد يعني لاءات متكاثفة.

وبملاحظة بسيطة، وبشيء من التحليل والاستطراد، سنجد أن هذا الأمر (أقصد الموافقة على الغلط، أو المعارضة غير المبنية على منطق) يصح من أصغر وحدة (البيت) إلى أوسع مؤسسة وطنية أو حتى دولية.

والأمر يكاد يكون بدهياً، لكن كم من الأمور الأساسية الهامة تفوتنا وتنقصنا، بعد أن نكون شاركنا واعين أو غافلين في التأسيس لما أدى إلى هذه النتيجة،

أو فرضها أو تشريعها، ونتباكى على المبادئ والأخلاق والإنجازات..

قد يفرح القائل أو الفاعل بأمواج الموافقات والمباركات والتأييد، وقد ينسى أو يتجاهل من يقول: "لا"؛ تلك الـ "لا" التي تضيع في حمى ضجيج الـ "نعم" المجانية أو الجانية. لكن هذا القائل أو الفاعل نفسه لا يحترم في قرارة نفسه من يقول: "نعم" من دون فهم أو مسؤولية. وسيلوم نفسه ذات يوم لأنه لم يلق بالاً للأصوات الأخرى.. وسيلوم الموافقين/المنافقين أيضاً على فعلتهم، لأنهم بذلك تركوه وسواه يستسيغون الفعل، ويوغلون في الخطيئة؛ الخطيئة التي قد تودي بالجميع، من دون أن ينجو من تبعاتها أحد.

[ ] [ ] [ ]

من دون مبالغة !

تتطلع هذا الصباح، وكل صباح، إلى أملٍ جديد يبقيك في حال تستطيع معها أن تتحمل كل المنغّصات، والحماقات، والرغبات، والساعات التي ستعبر قبل أن يسدل هذا اليوم ستره؛ والستر أمنية عصية أيضاً لكائن يستعذب الاضطهاد، ويتلذذ بالخطايا، كي يستمتع بالندم الذي يكاد لا ينتهي إلا بانتهاء ما لا يمكن الندم عليه، بعد أن يمضي العمر؛ فهل يجعلنا ذلك نبالغ في ممارسة الندم المسبق، فنبالغ في الاندفاع أو التطلب، وفي ممارسة الخطايا؟!

تقول هذا الكلام وتحسه يومياً بل ساعياً، لقاء ما تسمعه وتراه في هذه الأيام، أنت الذي لا تعوّل كثيراً على يقينيات تأتي من جهة واحدة، أو وجهة نظر وحيدة، أو زاوية معينة، أو موقع محدد.

لكنك تكاد توقن أن المبالغة جزء أساس من تفكيرنا وحياتنا العملية ومشاعرنا.. وآمالنا وحياتنا التي يتحمل الآخرون فقط مسؤوليتها؛ الآخرون بمن فيهم القدر، والظروف، والزمن..!

الجميع يأملون، والجميع يطلبون، والجميع ينتظرون.. ولكن من هم الفاعلون؟!

من هم الفاعلون قبل ذلك، وعندئذ، وبعده؟!

إذا كان الذين فعلوا هم الذين سيفعلون، فماذا ستكون النتيجة؟!

إذا كنا لم نتورّع عن دفعهم إلى موقع الفعل من جديد، نحن الذين شكونا وبكينا وندبنا، واستثرنا ما يؤلم فينا من جراء أفعالهم وسلطانهم وممارساتهم، وحصدنا ونحصد ما يحتاج إلى عناصر أخرى، وأدوات مختلفة، وأفكار واختراعات أخرى، كي ننقيّه أو نغربله أو نذروه من دون أن نفقده.

وإذا كنا لم نقف في كل ما مضى على حجم مساءلة أو محاسبة أو معاقبة، يوازي أو يقارب حجم ما يكاد يتفق الكثيرون على تأكيد حصوله فوق وتحت، بمن فيهم الفاعلون أنفسهم؛ وإذا كنا لم نسمع في كل ما مضى أن أحداً ممن كانوا في مواقع هامة وانتهت مسؤوليته أو مهماته أو وظيفته لسبب أو آخر، يعبر عن ندمه أو أسفه، أو يقدم اعتذاره عن الأخطاء التي اقترفها، والتي يعترف، بل يجاهر بها أحياناً؛ وإن الكثيرين منهم؛ بل غالبيتهم ينتقدون الآخرين أكثر منا، ويجعلوننا نخسر أمامهم مرة أخرى، في التعبير عن ضيق أذرعنا التي تتضاغط حتى لم تعد تحتمل.

ومنهم من يتذمر لأنه لم يأخذ فرصته كاملة، ولم يحصل على إشباع جلّ رغباته بعد، رغم عبوره مواقع عديدة، وتنقّله من منصب إلى آخر، ومن مسؤولية إلى سواها، ومن إنجاز إلى آخر ومن بحبوحة إلى أخرى؛ وما يزال ينتظر الفرص، ويخطط للحصول عليها، ويسعى بكل ما يمكن، حتى باستخدام المعايير التي

نستخدمها، والعناصر التي ننتظرها، والأدوات التي نلحّ على تطويرها أو تبديلها؛ تماماً كما فعل ويفعل الذين ما يزالون في المواقع المهمة التي وصلوا إليها بالطرق المتعددة، بصرف النظر عن مشروعية بعضها أو عدمها؛ من دون أن نغفل عن أن لنا دوراً في ذلك، تماماً كما كان لنا الدور الأساس في إعادة تقديمهم إلى مواقع، يفترض أن تتم فيها معالجة الحال التي يُشكى منها على مختلف الأصعدة، ويفترض أن يتم فيها البحث عن الأسباب /وجلّها معروف/، وتحليل الوقائع، واستنتاج العناصر وطرح الرؤى ومناقشة الأفكار، واقتراح الحلول التي نحتاج إليها، ويحتاج إليها الجميع، وينتظرها الجميع..

وإذا كنا لا ننكر على الآخرين الأمنيات والطموح، ولسنا نعتب عليهم أو نلومهم، ولات ساعة عتب أو ندب أو تبكيت!

وإذا كان التعميم غير مقصود بالتأكيد..

فإن من حقنا؛ بل من واجبنا أن نبحث عن ممارساتهم، أن نذكر مبادراتهم، أن نتساءل عن إمكانياتهم التي كانت وتكون.. وليس من حقّنا أن نتجاهل "إنجازاتهم"، وليس من حقنا أن نتغافل عن المصلحة في كل ذلك: هل كانت عامة أو خاصة؟! وإلى أي حدّ تناقضت أو تواءمت مصالحهم مع المصلحة العامة، مصلحتنا، مصلحة الوطن؟! ليس من حقنا، ولا يمكننا، أن نغضّ الطرف عما باستطاعتهم أن يفعلوه من جديد، لأننا لا يمكن أن نغضّ الطرف عما نريد، ويريد المخلصون من أبناء الوطن وهم الأكثرية.

لا يحـقّ لنــا، ولـيس باسـتطاعتنا أن نتغاضــى عـن المستقبل الذي نرجو لنا ولأبنائنا، ولأجيالنا القادمة..

لا يحـقّ لنــا، ولـيس باسـتطاعتنا أن نغفـل ذلـك أو نتغافل عنه، إذا كنا قد مارسنا قناعاتنـا الحقّـة، وانسجمنا مع أفكارنا وآمالنا، واعتمدنا على ما نعرفه حقّ المعرفة، حين اخترنا من نود ونريد ونأمل أن يحقق لنا ذلك!

لكن أسئلة كثيرة وتساؤلات أكثر، تجعلنا نقف عند حدود، قد لا يراها الكثيرون، أو لا يريـدون أن يروهـا.. نقف عندها لنأمل بحدود، ونتفاءل بحسبان، وننتظر من دون مبالغة، لأنه ليس لنا من سبيل آخر أكثر جدوى!

]]]

خيارات

حين تكون المسألة قدرية لا مناص من التسليم والاستسلام..

لكن؛ حين تتعلق القضية بنا نحن الكائنات البشرية العاقلة؛ فلا بد من التفكير في حيثياتها، والنظر قريباً وبعيداً، والسعي لاختيار أفضل الأشخاص والظروف، وصولاً إلى الممارسات.. ومن ثم: النتيجة الأفضل تأتي!

حين لا يكون الأمر بيدنا، نشكو ونتّهم الآخرين، ونحمّلهم المسؤولية في كل ما يجري. ويكون معنا بعض الحق على الأقل؛ لأن من واجبنا عدم السكوت، وعدم الاكتفاء بالندب والأنين؛ أما حين يكون بإمكاننا أن نعبر عن آرائنا؛ بل أن ندلي بأصواتنا لاختيار من يمثلنا، يصير الحق كله معنا أو علينا، وفقاً لصواب خياراتنا، أو أخطائنا في الاختيار.

ومن الطبيعي أن يتقدم لتحمّل المسؤولية من يرغب، ومن يجد في نفسه القدرة على القيام بتلك المسؤولية. ومن المألوف أن يقدّم أيّ شخص نفسه وآراءه وأفكاره ومشروعه، إن كان لديه مشروع؛ ومن الدارج أن تستخدم في تقديم الشخص لنفسه أو لسواه كل الوسائل

الممكنة من قرابة ومعرفة وصداقة وزمالة.. وهذا حقه؛ شريطة أن لا يسيء إلى الآخرين، أو يسبب الأذى لأحد.

لكن الواجب يقتضي ممن يختار أن يكون مقتنعاً بمن يختاره، ليحمل مسؤولية تخصه بشكل مباشر أو غير مباشر، في أي موقع كانت تلك المسؤولية، وفي أي ركن من أركان المجتمع كان ذلك الشخص.

والقناعة لا تأتي عبر العاطفة والمجاملة والخجل والامتثال للضغط والعلاقات والمحسوبية و(المَونة) ومسك الذقون.. أو يفترض ألا تأتي عبر ذلك، ولا مسوّغ لأيّ راشد أن يعبر بموقفه أو صوته بناء على ذلك، بصرف النظر عن إمكانية المختار وقدراته، واستعداده لبذل الجهد والوقت والتفكير في سبيل قيامه بالواجب الذي تقتضيه المسؤولية.

وفي كل شريحة من أبناء الوطن الكثيرون من المخلصين الجادين القادرين على العمل والمبادرة، وتحمّل المسؤولية التي تسعى لكي تؤمن للجميع حقوقهم، وتفتح السبل التي تهيئ للقادرين تقديم ما لديهم من إمكانيات في خدمة الصالح العام. إن هناك الكثير من الذين يؤمنون بالفكر المؤسساتي، وهم حاضرون للعمل الجماعي، ومشاركة الآخرين أفكارهم وآراءهم واقتراحاتهم، بصرف النظر عن انتماءاتهم أو ألوانهم أو قربهم أو بعدهم عن المراكز.

ومنهم من لم يحمل بعد المسؤوليات لسبب لا يتحمل وزره، ومنهم من لم يستطع أن يقدم ما لديه نتيجة الظروف غير الملائمة..

والوصول إلى أمثال هؤلاء الأشخاص ليس عصياً؛ إنهم موجودون من دون أدنى شك.

والمتقدمون للمسؤولية ليسوا من الفضاء، وهم غير بعيدين عنّا إلى درجة جهلنا لإمكانياتهم، مما يدفعنا لاختيار القريبين أو المقرّبين أو الملحّين.. بصرف النظر عن حسن تمثيلهم لنا، وحسن أدائهم لما هو مطلوب، وشح قدراتهم**!!**

حين نختار، وتكون فسحة الخيارات واسعة، تغدو النتيجة من صنع أيدينا. وحين نختار ونحسن الاختيار، وحين نعبر عن رأينا الذي يعبر عن ضميرنا وقناعتنا بلا حسيب أو رقيب، ومن دون أن نخاف في الحقّ لومة لائم؛ فإننا بذلك نحترم أنفسنا، ونثق بذواتنا وبقدراتنا على المحاكمة والتمييز بين الجعجعة والطحين، بين الغث والثمين، بين القشور وبين الجوهر، بين الغاية التي تسوّغ الواسطة، والغاية النبيلة التي لا ترضى بالطرق الملتوية، حتى لو أوصلت إلى المواقع المرجوّة.

إننا بذلك نحترم من وثق بنا، وحمّلنا مسؤولية تمثيله، من ينتظر خياراتنا بثقة وأمل ورجاء.

]]]

ما بين الألم والأمل

مع عبور الوقت الذي يتضاغط ما بين الإقدام والإحجام، الألم والأمل، تتكاثر الخيبات وتتكاثف الآلام. ففي كل آن منعطف خطير؛ هذا ما تقوله وسائل الإعلام، وتؤكد ذلك الوقائع والتصريحات في الداخل والخارج، وقبل ذلك وبعده، هذا ما تحسه وتشعر به.. حتى تكاد الطريق تغدو منعطفات ومنعرجات تدور بك إلى المجهول من دون هدف أو غاية أو أمل.

ليس هذا جديداً؛ كنت تسمعه وتحسه، وتمتلئ ذاكرتك به منذ زمن بعيد..

تتلفت حولك، ثمة غموض يكتنف المآل الذي رنوت إليه وسعيت، وتمنيته خلاصاً لآخرين أيضاً؛ فلم تفكر في نفسك مفرداً منبتّاً، ولم تظن يوماً ما أنك يمكن أن تكون فرحاً، مرتاحاً، وسواك مغبونون يعانون.. ولم تعتقد ساعة أن الطريق ملكك وحدك، أو أنها لا تتسع لخطا الآخرين الذين يفترض أن يجدّوا السير إلى جوارك..

تنظر إلى نفسك، تكاد لا تصدق أنك ما زلت، رغم الزلازل والعواصف والضباب، قادراً على النظر والتفكير والتعبير.. ما تزال صابراً على الحدود التي تلمع، وقد تحزّ، وتحس وقعها على الأعصاب.

لا شك في أن شرائح البشر في بلدك، وربما في سواها، تتمايز بعضها عن بعضها الآخر؛ فما من فصيل يخلو من متفوقين وعاديين ومتسلقين أو متواطئين، أو واصلين بطرق غير الطرق المعروفة السليمة، وما من شريحة تفتقر إلى العابثين أو المغرضين أو المفروضين.

مع ذلك لا يمكنك ببساطة تقبّل الغش والاحتيال والمداورة والالتفاف على الحقائق وتزوير الوقائع، وليس في استطاعتك أن يكون رد فعلك عادياً أو بارداً لدى كل ادعاء، أو افتراء، حتى لو لم يكن يقصدك، أو يعنيك مباشرة..

فأنت معنيّ بكل ما يحدث في هذا العالم؛ فكيف يكون الحال حين يكون الأمر قريباً منك، ونتائجه تمسّك كما تمسّ الآخرين، ويتحول صداها وتبعاتها أنّى كنت؟! وخاصة أن الأمر لا يتعلق في حال مفردة، أو واقعة بعينها؛ بل ينسحب من وإلى الجميع ممن شاركوا ويشاركون، أو ينظرون وينتظرون، ويأملون!! وخاصة أن في الأفق مناسبة وفرصة للكثير مما يمكن مناقشته وتصويبه وتغييره؛ ما يزال بالإمكان ذلك.. إن تَحسن النوايا، وتُشحذ العزائم. وإذا ما كانت الرؤى والأفكار والعناصر والهمم على قدر المسؤولية، على قدر المطبات والمنعطفات والمزالق التي لا يشكّ أحد في أنها وفيرة.. رغم أن الأدوات والعناصر والآليات والإمكانيات لا تمنع من القلق، ولا تخفف من الإحساس بالإحباط الذي نرجو أن يكون في غير محله..

*

سأله: ما رأيك به؟! أجاب: أنت تعرف موقفي منه، وتعرف كم ضايقني وآذاني، ووقف في طريق تقدمي ونجاحي في عملي، وأرهقني بطلباته، وأوامره، وتدخلاته المباشرة وغير المباشرة، تلك التي لم تكن في صالح العمل، أو في سبيل المصلحة العامة!

- إذن أنت غير مرتاح للنتيجة!

- بالتأكيد؛ هل يمكن أن أتغافل عن معنى استمراره في موقعه وربما صعوده، إلى مراتب أهم؟!

- لكنه حصل على ما أراد، بناء على رغبة وإرادة الغالبية في حيزّه!

- أعرف، أعرف، وهذا ما يحزنني!!

- ألم تشارك في ذلك؟!

- شاركت، نعم شاركت، لا يمكن ألاّ أشارك في هذه الفرصة الذهبية للتعبير عن رأيي. وطلبوا مني ذلك، وألحّوا، وذهبت وشاركت بملء إرادتي!

- سأسألك سؤالاً أرجو أن تصدقني الجواب!

- ما سؤالك؟!

- هل تعدني بأن تقول الصدق؟!

- ولو.. ما الذي يجعلني أكذب؟! إن كنت أعرف؟! وهل سؤالك صعب إلى هذه الدرجة؟!

- هل اخترته من بين من اخترت؟!

لم يرد، توقف، أدار وجهه حاول النهوض.. ألحّ سائله:

- أحلّفك بـ...

رد بغضب: لماذا تحلّفني؟! لماذا تودّ إحراجي؟!

- لقد حلّفتك!

- بما أنك حلّفتني بأعزّ ما لديّ.. فلن أنكر أنني اخترته!

- على الرغم من كل ما تعرف عنه، وما تعاني منه؟!

- نعم..! حصل ذلك، وقبل أن تستغرب، وتتهمني أقول لك: لم يكن بيدي حيلة.. جاء إليّ، اصطحبني بسيارته، وحلّفني مثل ما حلفتني! بعد أن لا زمني قبل ذلك أياماً!!

أدار السائل وجهه، أطرق.. ومضى من دون أن يلتفت إلى محدثه الذي أطرق أيضاً.. وران صمت مطرق!!

]]]

رائحة احتراق مكتوم!

يحدث هذا، وقد حدث، وسيحدث من دون شك، وليس غريباً لدى أفراد الكائن /العاقل/، ولكنك تستغربه؛ ليس جديداً، ولا طارئاً، لكنك تدهش له دائماً، أو تقلق، أو تكتئب؛ ليست حالاً فردية، استثنائية، مع ذلك لن تستسيغها، أو تهضمها.. أو تشتهيها؛ ليس ضعيفاً من يقوم به، ولا هّيناً، ولا رحيماً، ولن تسكت عن القول الحق، أو تتوقف عن الفعل الحق؛ ليس صبوراً، ولا حليماً، ولا يبتسم حتى كالليث، ولن تفقد صبرك.. ليست أدواته قليلة، ولا عناصره معدودة، وليست يده مغلولة، ولن تفقد أصابعك دقة الإشارة!!

ليست موادّه نادرة، ولا ألوانه باهتة، ولن تفقد صفاءك، ولن تقصر أدواتك، ولن تتعكر أو تتشوش ملامح اللوحة لديك، تلك التي لن يظهر فيها إلاّ بشعاً مشوّهاً.. رغم امتلاكه كل إمكانيات التزيين؛ حدث، ويحدث، وسيحدث بالتأكيد؛ لن ينتهي من واجهة الحياة، وجبهات الأيام، ومفرزات التاريخ، وخلاصاته، ولن تنتهي محاولاتك التي لا يعيبها أنها قد لا تنجح!

*

يقولــون مــا لا يفعلــون، ويمارســون عكــس مــا يشرّعون، ويتبارزون بشتمه وإدانته والمطالبة بالإجهاز عليه، والاستعداد لذلك حتى النهاية؛ حماستهم لا تفتر، ونبراتهم لا يصيبها الوهن، وإيقاعات مرافعاتهم تدوّم في الأركــان كمــا فــي الســاحات، فــي القاعــات كمــا فــي الإذاعات، في العلن وربما في الأحلام!!

حتى لتحسب أنه لو كان الفساد كائناً من لحم ودم، لذاب خوفاً، وتبخّر رعباً، ولن يتماسك ليتطلب ضربة من سيف أو جرّة من قلم، أو نفخة من محموم!!

ألهـذا يبـدو غيـر موجـود؟! ألهـذا تـزداد الحماسـة، وتتعالى الهتافات بالنصر المؤزر عليه حتى قبل أن تبدأ المعركة؟!

أم أنهـا بـدأت منـذ زمـن، وهـو كـائن معتمـر قبعـة الإخفاء، يهرب من ساح إلى ساح، ومن دائرة إلى دائرة، ومن مشروع إلى مشروع، ومن بيت إلى بيت، ومن نفس إلى نفس؟! ألهذا إذاً تظهر أصداؤه في كل مكان؟! ألهذا يبدو مرعباً حتى تتكاثر السهام، وتغص الكنانات، وتتحصن المواقع، ويكتنز الذهب وتخزّن الفضة، وتباع الآثار، وتتزاحم الشيكات والأرصدة وصولاً إلى بقاع بعيدة، حتى ليبدو عصيّاً على الحصر؟! تضيق الأمكنة منــه، وتنفـتح الجـدران والحقائــب والحـدود لغاراتــه، والنفوس والمشاعر والرغبات تتلمظ للقرب منه، أو التلذّذ بحديثه، والتمادي في سيرته وذكره حتى لو كان شتماً وقدحاً!!

*

(قال الرجل لابنه مظهراً غضباً فظيعاً وهو يطارده ليؤدبه: اركض إلى عمك ليردّني عنك!!).

هل نختلف على درجة القرابة؟! أم على صحة الواقعة؟! أم نضحك منها؟! حتى ننقلب على ظهورنا من الضحك؟!

كما يفعل الفساد – ربما- كلما سمع كلاماً ينال منه، أو لمح ظلّ رمح مسدد إلى عينيه، أو رأى أشباحاً تهمّ بمطاردته؛ بل تطارده منذ زمن، وهو بكامل أناقته وألوانه ورنينه، وبكامل تاريخيته، وواقعيته وحداثته، يفتح لها مآقيه وأحضانه، وعواطفه، من دون أن يراه المطاردون، حتى يمدّ رجله ليعثرهم وينهضهم، ويكفكف غبارهم، فيكفكفون أعصابه من إزعاجاتهم، ويتأهّبون للجري من جديد خلفه؛ فيفسح لهم الطرق، مبتسماً، مهنئاً بالفوز المؤزر!!

*

لو كان كل من يتكلم عن الفساد غير فاسد، لقلّ الفاسدون! لو كان كل من يمارسه يخاف من تبعات ذلك، لما كنا في حاجة إلى كل هذه الحملات!

لو كان كلّ من يجاهر بالهجوم عليه، يخفف من الجهر في ممارساته، لما كان في الأمر مشكلة بهذا الحجم؛ لو كان جميع المشتاقين لملاقاته، المتأهبين لمواجهته، ينظرون إلى جوارهم، بيوتهم، حدودهم، موظفيهم، أتباعهم، معارفهم، مراياهم، لما كان الأمر يتطلب كل هذا الحشد للبحث عنه ومطاردته؛ ولما كان

ضرورياً أن تغدو سيرة الفساد أوسع من سيرة الطقس في بلد متناوب الفصول والمواسم.

حتى بتّ أخاف أن يكون الهواء معكراً به، والضوء مناوراً من تأثيره، وأن تمتدّ الطرق خلّبية بسببه، وتتكاثف الكتابة خداعاً من جراء دوافعه، أو خوفاً منه أو من افتقاده، أو غيرة من المغرمين به، المولعين بفصوله، أو تكون المبالغة في تسفيهه سبيلاً لنيل شرف الكفاح ضده، أو لقائه على الأقل؛ صارت الحرب عليه حديثاً يتكرر، وصوتاً يعلو، وشعاراً يطوف مدى الأوقات واللقاءات.. حتى بات اليافع الغرُّ يسأل لدى ذكر أي موقع أو جهة أو شخص مهمّ: حتى هنا يوجد فساد؟! ويتساءل بأسىً وخيبة: هل من مكان من دون فساد؟!

ولعله في داخله يغصّ: أين المفرُّ؟!

ولعله يلوم ويعتب، بالحدّة نفسها التي تصرّ على موقفك بها، ولن تندم من أجل ذلك، ولن تعدم إشعاعات نقية، ونسمات منعشة، وآفاقاً تتعلق بها المآقي وتمتد إليها الأبصار.. رغم الشحوب الذي يكاد يهيمن، ورغم الضجيج الذي يوقر حتى المسامات، ورغم الغبار الذي يكاد يضيع الملامح، حتى لتضطر أن تتقرى عناصرك باللمس، وأعضاءك التي ما تزال تحسّ وتصمد وتشير، وما يزال ذاك اليافع الغرّ يفكر ويتألم ويتساءل.. وإن كان لتساؤله رائحة احتراق مكتوم.

]]]

المسؤول الذي كان..

ليس وحيداً، وليسوا قليلين..

عاش عمره مسؤولاً: مناصب ومواقع، مهمات متعددة، وامتيازات ملونة.. ثم استراح أخيراً، مرغماً؛ تلبية لحكم القدر: السن، أو قلقلة الدعم، أو شحّ العسل الذي كان يملأ الأفواه!

ليست القضية هنا، ولم يعد كبير معنى لمثل هذه القضايا؛ (ربما لم يعد الحديث فيها، أو حولها مستساغاً؛ ليس لعدم وجودها؛ بل بسبب عكس ذلك!)؛ القضية في أنه لم يشكر الله، والراسخين في العلم، على أن أحداً لم يسأله: من أين لك هذا؟! أو كيف صار لك هذا؟! أو ماذا تفعل بهذا كله؟!

ولم يخجل من مواجهة الكائنات التي تعرف إمكانياته، وقدراته، والسبل التي سلكها حتى صار ما صار..

لم يتّعظ، لأن أياً من هذه الكائنات لم يحاججه في الكثير الكثير من الإنجازات التي هيكلها بمواد رخوة، وعلى أساسات هشة، ولم يفاتحه في التيجان التي نصّبها على رؤوس تضيق عنها شكلاً ومضموناً.. وما زالت تهتز، فتتحرك فوقها وتحتها أشياء وأشياء!

لم يعترضه أحد، ليسأله عن قرار اتخذه منحازاً لغير الحق، أو رأي أفتى به يجانب المنطق، أو موقف تبنّاه يناصر الظالم!

لم يطأطئ عينيه أمام الأعين التي تجيد القراءة، والتعرف، والعتب، والتأنيب.. وترنو إلى السماء!

لكنه يقول متباهياً، ويمشي مختالاً، ويسير بكل جرأة وفجاجة في الدروب التي خبرها، ليسيّر مشروعاته، ويستثمر "أمواله" في أفضل المواقع، وأنسب الشروط، وأقرب الموارد.. وليؤمن لأولاده الذين كبروا في عزه، الأماكن التي تؤمن استمرار المسارات، والعلاقات، والامتيازات..

تسمعه يقول منتشياً: "الأوادم" قدّموا لنا المواد حتى صار لنا بيوت، ومعمل، وشاليه، "الخيّرون" وفروا لنا ما يلزم لنخالف، ونتجاوز، " الأفاضل" لم يبخلوا بالغطاء الذي سمح لنا أن نرفع من نريد، ونخفض شأن من لا نرغب لإمكانياته أن تظهر، وتلك التي يمكن أن يستخدمها في طرق لا تناسب..

ويحكي: قلنا لأبي فلان: هذا يبيض ذهباً، لا تنسه من بركاتك. فلم يخيّب أملنا، وصار في موقع مهم، يحل ويربط، ويجيد الحساب، وما يزال؛ رغم أن قيمته لا تقارب المعادن الثمينة. وهذا سر النجاح، نجاحنا بالطبع.

ويقول، ويقول..

يتحدث بهذا في جلساته الخاصة، وبعض الجلسات العامة ذات المستوى!

والغريب في الأمر، إذا ما كان في الأمر غرابة، أنه يجاهر بالحديث حتى أمام من لا يستسيغ ذلك، ولا يجعل

مثل هذا الحديث مكانته في نظرهم تستقر في مكان محترم..

وتزداد الغرابة، إذا ما كان هذا المسؤول الذي كان ويمكن أن يكون، ممن يحسبون على شريحة المثقفين، أدباء أو ما أشبه!

وتتضاعف الدهشة، حين يقول ويكرر في "إبداعاته" التي ينشرها على الملأ غير هذا؛ يلوم، ويندب، ويعاتب، ويشكو، ويتذمر، ويتباكى على الحق الذي يضيع، والمظلومين الذين لا تسمع آهاتهم، والقوانين التي يتم تجاوزها في مختلف المستويات، والقدرات التي تهمّش، والإمكانيات التي يتم التغافل عنها.. ويتحدث في "أدبياته" عن القيم والسلوك والمثل العليا؛ كأنما لم يسمع بـ"إذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا!"، أو "من كان بيته من زجاج عليه ألا يرمي بيوت الناس بالحجارة."

لكنه ربما لا يعدّها بلوى؛ بل ذكاء وشطارة وواقعية في هذه الحياة القصيرة إلى درجة لا يمكن إضاعة أوقاتها وفرصها؛ فقد لا تتكرر، في انتظار الدور أو القانون أو الإشارة الخضراء، ويعتقد أن بيته من حديد لا يلين. وهذا الفهم يفتقر إليه من ما يزال يقتنع بحسن السلوك والقيم والمآثر والكرامة..

والأغرب، أننا ما نزال نستغرب حضور مثل هذه النماذج بيننا، بل أمامنا، وحفاظها على "جاهها"، وربما تكاثرها..

]]]

مَشي..!

آخر المعلومات المتواترة عن بعض المسؤولين، أنهم "يمشون"؛ وحتى لا تؤخذوا بجريرة سوء النية والتفسير، أسارع إلى التوضيح: يمشون من المشي، أي استخدام الأقدام في الحركة والتنقل. ولكي لا تأخذوا راحتكم بحسن النية هذه المرّة، أستطرد: ليس المشي الذي يستخدمه المسؤولون هو ذاته الذي يؤديه غالبية المواطنين لقضاء حاجاتهم، وتأمين مستلزماتهم. المسؤولون يتمشّون للتسلية والترويح عن النفس مع أصدقاء الطفولة أو الجيرة؛ بل إنهم يمشون لتخفيف الوزن ومعالجة اضطرابات الجسد الذي أرهِقَ تحت ضغط تأمين حاجات الناس! وترهل من الجلوس ساعاتٍ طويلة وراء المكاتب ــ أو في أماكن أخرى ــ لتوفير الحلول اللازمة لمشاكل المواطنين التي لا تنتهي، ولا شيء يرضيهم!!

والمشي كما تعلمون، صحيٌّ في مناحٍ متعددة؛ فهو يفيد في جعل عضلات الجسم وأعضائه في حال نشاط، فيصلها الدم الحار المتوفّز؛ والمشي يؤمن للماشي فرصة اكتشاف الأشياء والكائنات عن قرب، ومعرفتها معرفة أدق، واكتشاف تفاصيلها وألوانها وتشكيلاتها وعلاقاتها

بعضها بالبعض الآخر، وربما رائحتها. وفي هذا فرق واضحٌ بين مثل هذه المعاينة، والنظرة السريعة الماسحة من خلال زجاج السيارة، أو من فوق النظارة، أو الأكتاف، أو الرؤوس..

والمشي يترك مجالاً للتفكير؛ إذ إن وقتاً يستهلكه الماشي في قطع مسافة ما، يمثل أضعاف ما يستهلكه الراكب، أيّاً كانت وسيلة الركوب، خاصة تلك التي تُستحدَثُ باستمرار. وبالتالي، يزداد ابتعاد مستقلّيها عن كل شيء باطراد.

ومن غير المعقول لكائن عاقل، أن يتعطل التفكير في أثناء هذا الوقت، أو طواله. وقد يتطرق الفكر الفاعل للماشي إلى أمور متعددة بتفصيل أوضح، وأريحية أوفر؛ وربما يصل إلى قناعات مخالفة لما كان يحسب، أو تأكيد قناعات متبنّاة سابقاً. لكن المشي وفق هذه الفضائل، يخص عباد الله الذين ليس لديهم وسيلة نقل أخرى، وهم يخرجون من بيوتهم على أرجلهم ويعودون بها، ويفعلون ذلك في العلن، وفي وضح النهار، كما في ساعات العتمة.

أما الذين "يمشون" من "الآخرين" فإن لهم طقوساً مختلفة وشروطاً مميّزة؛ فهم يخرجون بسياراتهم كالعادة أمام أعين الناس، ليحافظوا على قيمتهم في العيون، ثم يترجلون منها بعيداً عن نظرات المشاهدين، ويطلبون من سائقيهم موافاتهم بعد حين، أو استباقهم إلى مكان معلوم، أو مواكبتهم ــ ولا نقول حراستهم ــ مخافة أن يصيبهم مكروه، كما يواكَب المتسابقون! وقد يقومون بالمشي بالسيارات ذاتها كمشوار أو كتجربة سرعةٍ بين

جموع الماشين. أو يقوم بهذا ــ بدلاً منهم ــ أبناؤهم الأعزاء، أو فلذات أكبادهم التي لا تمشي على الأرض.

ولا يمكن أن يُصدَّق ما يهمس به بعض (ضيّقي الأعين) من أن هذا المشي هو للتعوّد، فربما حصل ما يشاع ويُخشى! وعدم التصديق يأتي من أن لديهم ـ صار لديهم ــ القدرة على استبدال سياراتٍ جديدة "خاصة" بهم، بالسيارات المسلمة إليهم، في المكتب أو المنزل، وربما أحدث. ولكن للحق، لا أعتقد أنهم يفرّطون بجنى المسؤولية ووفر الأمانة من أجل هدر كهذا!

هذا إذا ما اقتصر الأمر على السيارات، واتُّهمت بأنها الفاعلة والعارفة ببواطن الأمور والغاضة المشاعر عن السلبيات، إضافة إلى أن الكثيرين يشككون في صحة الكلام عن كل ذاك التغيير، أو في بعضه على الأقل، وبالتالي، فإن بعض الذين "يمشون" ــ وبعض الظن إثم ــ يفعلون ذلك من أجل عيون الصحة والمصلحة الشخصية، التي تؤدي بالضرورة إلى المصلحة العامة؛ فهم مسؤولون عن جزء كبير من هذه المصلحة العامة، لأن العامة لا يعرفون مصلحتهم ــ مع أنهم يمشون باستمرار ــ ولكن كل ذلك للحاجة وانعدام البديل أو الوسيلة،وليس للمشي المجرد.

كل ذلك لا يقلل من أهمية المشي والدعوة إليه والنصح باتباعه.

وبما أن كثيراً من النصائح يبدو ثقيلاً، وكثيراً من الدعوات لا يلقى آذاناً صاغية، فإن اقتراحاً يبدو مهماً، وفي مصلحة الجميع، أعْني الخاصة منهم والعامة؛ وهو أن يفرض على المسؤولين المشي يوماً أو يومين أو

أياماً، (ولو كان ذلك أوقات العُطل الرسمية، التي أصبحت على الأقل يومين أسبوعياً)، أقصد، أن يُتركوا من دون آليات، لأن النفس أمّارة بالراحة والكسل.. وفي هذا إصابة رف من العصافير بحجر واحد: نخفف من تلوث الفضاء، ونحافظ على البيئة، ونقلل من الهدر، ويتعرف المواطنون إلى مشية المسؤولين، ومراحل تغيّرها.. هذا بعد أن يتعرفوا أشكالهم ومواصفاتهم عن قرب. ويحس المواطنون بالمواساة والرضا؛ إذ ينعمون بساعات مساواة (ولو شكلية)، ويحافظون ـ وهو الأهم ـ على الصحة، ويتمتعون بفوائد المشي من دون خجل، وفي النهاية، يكون قد حصل التعوّد على المشي، ويستطيعون أن يمشوا كبقية خلق الله، فيما إذا حصل الذي لا يسمّى.. وتجاوزتهم التهمة أو أُرجئت محاكمتهم إلى أجل مسمى**!!**

]]]

وظلم ذوي القربى..

في الجو العاصف الذي يحيط بالمنطقة برمتها، والهجوم المنظم من جهات العالم المختلفة، والموجه إلينا بألوان وأشكال لا تختلف إلا بالكثافة والنبرة..

وفي مهب هذه الرياح التي يراها البعض "مواتية" لإحداث تغييرات جذرية، لا يمكنك أن تحس إلا بالقلق؛ تتناهبك أشواك الألم، وتصارع موجات الصدمة وأصداءها، من جراء جريمة مرفوضة التصميم والإعداد والتنفيذ والغاية؛ بل الغايات التي تريد قتل عصافير المنطقة كلها بضربة واحدة.. ولن تنشغل بتحديد أية الأشواك الأقسى، فكلها دامية، رغم الاعتياد على ظلم القادرين باتهامات جاهزة، وتجريمات مبوّبة، ومطالبات استفزازية وأوامر مشرعة..

أولئك القادرون(!!) الذين يغزون ويحتلون ويهيمنون ويحمون الاحتلال، ويصمّون حتى المسامات عن سماع آهات المعذبين تحت الاحتلال الإسرائيلي، ويغمضون البصر والبصيرة عن رؤية الدم العربي الذي يسيل في أكثر من مكان، ونتيجة جرائم لا تتوقف، ولا تتحرك من أجلها حتى شعرات غرّات الساهرين على القوانين الدولية وحقوق الإنسانية جمعاء!!

ومن بين النّصال التي تتكاثف من حزن على الضحايا الذين سقطوا، وحزن آخر على الضحايا المنتظرين المهددين.. وانتظار مربك، وآفاق مربدّة، وقلق من ظلم يعربد، وضلال يضجّ، وتباكٍ، وتجريم وأحكام بلا أيّ وازع من ضميرٍ، أو فرصة للتعقّل، أوَ برهة وعي..

في خضمِّ كل هذا الواقع الكابوسي المتربّص، تحسّ أن هناك من يُظلم مرات..

إنهم عمال سوريون ـ بعضهم بشهادات ـ اضطروا إلى مغادرة الحدود، وارتضوا العمل والعيش في ظروف لا تسرّ، وأعمال لا تنسجم ولا تتناسب مع إمكانيات الكثيرين منهم، وتلقّوا ما لا يليق من معاملة..

ومرة بعد أخرى يُحمّلون ما لا يجوز من تبعات، وما لا يستحقون من جزاء، وما لا يقبل من أحد..

وما يزيد المرارة ما يشحن به بعض المواقف من نكران للجميل، وعدم الوفاء، وإساءة لعلاقة ترسخت رغم المحاولات المستمرة لتشويهها، ورغم الأخطاء التي شابت بعض ممارساتها، وتجذرت وترعرعت بحكم الأسباب الموضوعية لشعب واحد بتاريخ واحد، وآمال واحدة، وهموم وآلام واحدة، ومصير مشترك، وما يزيد المرارة أكثر أنها ليست المرة الأولى التي يلاقي فيه عمالنا أنفسهم أمام هذا الواقع القاتم.

أذكر كم كان يلذّ حديث "البوارتة"، كما كانت تسمية العاملين هناك من أهلنا وأقربائنا وجيراننا وأصحابنا، وكم كان يلذّ الحديث عنهم حين يذهبون ويأتون، لا نرى منهم أو عليهم إلا ما يحسّ أنهم في "نعمة" نحسدهم

عليها، ونتباهى بها، وننتظرهم نهايات الأسابيع التي تطول، يلوّنون الفصول المتعاقبة والأيام الرتيبة، يحضرون ما يطيب من أشياء وحكايا.. وتبدو علائم "النعمة" بيوتاً اسمنتية، وكلمات ملوّنة وضحكات مشرعة..

لم نكن نلاحظ التعب في المآقي، والمرارة في الملامح، والقلق في الأوقات القصيرة التي يقضونها بين أفراد الأسر التي لا تكاد تهنأ باللقاء، حتى تنشغل بالرحيل..

لم نكن نعلم أن بعضهم يعيش في "بوسطة خربة" أو مرائب موحشة، وأن آخرين يأوون في هياكل بيوت قيد الإنشاء، وبعضهم الآخر في خيام ـ عرفنا ذلك لاحقاً ـ؛ ناهيك عن الشروط غير الصحية، وأنواع الطعام التي لا تناسب من يبذل عرقاً وجهداً ووقتاً مضاعفاً.. إلا من كان حظّه أن يكون في مطعم أو بستان، بصرف النظر عما يهرق من أشياء عزيزة لقاء أشياء قليلة.

وكانوا عرضة لكل أنواع المزاجيات من طرد أو حسم أو إهانة.. هذا إذا تغافلوا عما يلاقونه عند الحدود، تلك التي تتغير فيها المواقف والإجراءات كلما هبت الريح.

كان الكثيرون من شبابنا يسارعون في العطلة الصيفية إلى هناك.. ربما كانوا يتناسون، في غمرة اندهاشهم بالأضواء والنجوم والمظاهر والنقود المعينة على قلتها، أن يخبرونا أين كانوا يقيمون وماذا يأكلون!!

أحسسنا بمرارة تلك "النعمة" لدى تقاطر من نجا منهم حين ابتدأت الحرب الأهلية الضارية، وجاء بعضهم

مـع الكثيرين مـن "معلِّميهم"، وأقاموا بيننا علـى الرحب والسعة..

وتـــوزّع العائـــدون علـــى الأســـواق والشـــركات، والورشات.. والفراغ!

ولـم يلبثـوا أن رجعـوا إلـى هنـاك مـن جديـد، هـم أو أبنـاؤهم، بعـد أن اسـتتب الأمـن والأمـان بعـون إخـوتهم وأبنائهم في القوات العربيـة السورية، وبـاعتراف وشكر واحترام من الغالبية في القطر الشقيق. لكنهم مرة ومرة، يهـرع الكثيـرون مـنهم تـاركين حقـوقهم ومشـاريعهم وأمـوالهم وأحلامهـم.. غيـر مصـدّقين مـا يسـمعون، ومـا يلاقون..

هـذه هـي النتيجـة المـرّة التـي نجترعهـا جميعـاً، مـن دون أن يكون السبب هناك فحسب.

إنهم طاقة وإمكانيات، إنهم أكبادنـا التـي تمشـي علـى الأرض..

صحيح أننا مكتوون بنار العقوق، وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضـة..! لكن ذلك لا يمنـع مـن أن نفكّر بهـدوء، لنبحـث باهتمـام وجدّيـة، كـي لا تلـدغ عمالتنـا وثرواتنـا البشرية من الكأس عينها مرات..

ونتمنى ويتمنون أن يجدوا هنا ما يحـول بينهم وبين مثل هذا المصير، كلما هبت الريح!

]]]

ساعة الغفلة

"اللهم أجرنا من ساعة الغفلة!!"

عبارة لم تغب عن ذاكرتي، كلما ألمّ خطب، أو بدت حال منكَرة؛ كان يرددها والدي في كل وقت يشرد فيه إلى نفسه، ساهياً حتى عن وجودنا، مقطباً ملامحه، بعد صمت وتنهيدة وأنّة!

ـ وما ساعة الغفلة يا أبي؟!

أسأله منغمّاً متمثلاً حال الانقباض ذاتها.

ــ حين يغفل العقل، ويتوه الرشد، وينساق المرء وراء غرائزه الحيوانية!

ـ الإنسان حيوان ناطق يا أبي!

ــ ناطق؛ أي عاقل؛ ولولا العقل لكان الإنسان أشرس الأحياء، تراه يندفع بأنانية لاشتهاء ما للآخرين من دون حاجة، حتّى لو كانوا في أمسّ الحاجة إليه، وتورّطه القوة في انتهاك حريات الآخرين، ويجرّه الطمع إلى إملاء الكروش والجيوب والأقبية والبنوك.. وتبقى العين فارغة!

وأستطرد في تفكيري بعد زمن من رحيل أبي..

ساعة الغفلة تكون حين ترى في معاملة ما باباً للاسترزاق، انطلاقاً من تعقيد وتأخير مفتعل؛ وحين تجد في حاجة شخص آخر، يمتلك صفات تؤهله أن يستلم مكانك، ويمكنه أن يقوم بمهامك أفضل منك، فتشدّ العزم على إحباطه بالوسائل الممكنة جميعها "المشروعة طبعاً" النابعة من حرص على السلامة "العامة" والمصلحة "العامة"!

ساعة الغفلة تهيمن حين يحسّ الشريك أن الشريكة غائبة وبعيدة وقديمة، ولا بأس في بحث عمن تليق بالوقت المتاح والظرف المباح! وتشعر الشريكة أنّه متعب ومنهك من الجري وراء ما لا يسدّ الرمق، أو يوفّي الفواتير التي تتلاحق كل شهر، أو يرضي الأولاد المتفتحين على "دشّ" الجيران، وسيارة الأصدقاء، وثياب الأصحاب وأحذية الأقارب؛ وشكوى "الأمهات" وأسفهنّ على ساعة النحس والنصيب والفرص الضائعة؛ فتجد الشريكة، أو يقتنع الشريك، أن لا بأس من استجابة "نظرية" في البداية لمحاولات لا تكاد تغيب، لتأكيد الذات والحضور والجدوى!

والمشكلة أن ساعة الغفلة قد تمتدّ، وتتطاول، لتصبح عمراً، يوازي سنين امتلاك المسؤولية، لدى ضعاف النفوس.

وتتضاعف المأساة حين تتوسع الساحة والمدى المؤثر؛ فتتعالى ساعة الغفلة عن نداء الواجب صغر أم كبر، والاستبدال به قشور المواساة وضبابية العواطف، وتتعامى ساعة الغفلة عن صراخ الضمير الذي تضيق من حوله الفضاءات المحشوّة بالتجاوزات التي تقرّها "المنظمات الدولية"، أو تتجاهلها، ويشرّعها النظام

العـالمي الجديـد والقـديم، وتغـصّ بالمصـطلحات التـي تسـاوي بـين القاتـل والقتيـل؛ بـل تسـوّغ للفاعـل جريمتـه، بحجّة أن القتيل لم يضـبط نفسـه أمـام الرصاصـة المسددة إلـى العـين أو القلـب أو المـخّ.. وبحجـج التماديـات فـي ممارسة "الصلاحيات" التـي تبدأ مـن ضـبط إيقـاع الـنفس والحاجـات والرغبـات.. ولا تنتهـي إلـى تقسـيم الأعمـار والمصائر وفق ما يراه الأقوياء..!

هـل هـي سـاعات غفلـة أو تغافـل؟! وأيهمـا أقسـى؟! وهل هي ساعة أو أيام أو أعمار أو أزمان؟!

آهٍ يا أبي؛ ها أنا أردد مع تنهيدة وشرود وأنّة:

"اللهم أجرنا من ساعة الغفلة!!"

]]]

مفارقات عصرية

مفارقات عجيبة في هذا العصر الزاخر بكل شيء، والماضي بحزم وعناد إلى حتفه ربّما..

تُبذل جهود مكثّفة للوصول إلى ما يعدّ نصراً إنسانياً مؤزراً: أن يتفق المتقاتلون على هدنةٍ لإخلاء الجرحى! ولا يتم ذلك إلا إذا كانت المعركة سجالاً، وهذه الهدنة في الحقيقة ليست سوى فرصة للتحصين والاستعداد للقتال الأشرس الذي لا يخلف جرحى!

تُعقَد مؤتمرات، وتُعلن توصيات، وتُبذل إمكانيات للتخلص من الألغام المضادة للأفراد؛ في حين يغص العالم أرضاً وبحراً وفضاءً بأسلحة تبدو مسألة إنهاء الحياة على الأرض معها أمراً ممكن الحدوث في أية لحظة، فيما لو حصل خطأ بشري أو تقني أو مادي، أو أرضي، بمعنى وقوع زلزال غير متوقع في مكان تخزن فيه مثل هذه الأسلحة، أو خروج بركان خامد منذ سنين.

ويذكر أن معاهدة سالت /2/ التي وُقّعت بين أمريكا والاتحاد السوفياتي السابق، وعدّت في حينها إنجازاً إنسانياً مهماً، كانت تنص على تخفيض الأسلحة لدى الطرفين بما يكفي لتدمير الكرة الأرضية ست عشرة مرة!!

تُحاصَر دول، وتحارب شعوب، لأنها لم توقع على اتفاقية الحد من الأسلحة النووية، بينما تمتنع دولٌ أخرى عن التوقيع، ويسوّغ ذلك، على الرغم من تاريخها العدواني المشهود وشهوانيتها الدموية؛ إسرائيل مثلاً.

ولا يخجل القوّامون على أمور الدنيا، الذين يكنزون الذهب والفضة، من المشاهد التي يبثّونها عن الجوع والتشرّد والمرض لأشباه بشر يُعَدّون من أحياء النوع الأرقى، ولا يشفقون على الذباب الذي لا يجد على عظامهم ما يُسمن، وفي عروقهم ما يُحتَسى، ولا يحسّون بعناء الدروب التي تحمل أقدامهم الحافية، محمّلين بما يمكن أن يعينهم على أوقات أخرى. ويتباهى الموكلون بشؤون الحياة أنهم حافظوا على نوعٍ نادر من القردة أو الحيتان أو الطيور..!

يجتمع قادة العالم من أجل الأرض في قمة الأرض، ويختلفون على حماية الغابات، يتفقون على أبحاث علاج الإيدز الذي ظهر ـ كما يقول الكثيرون ـ من مختبرات أبحاث لأمور أخرى، ليست إنسانية أيضاً! يعقدون الندوات الطبية والبيئية، ويتنازعون على أسبقية استغلال الأرض من دون النظر إلى ما يسببه هذا من دمار وضحايا.. مثلاً: لم يستلم (كامبيلاّ) الحكم في زائير، إلا بعد أن وقّع عقوداً بمليارات الدولارات مع شركات أمريكية لاستثمار الماس وسواه، منتصرة بذلك على شركات أوروبية كانت لها الغاية نفسها، وتبحث عنها لدى الرئيس المخلوع سيسيك.

يتسارعون لإعمار الفضاء، ويتسابقون على استنزاف الأرض وثقب أوزونها، يتكاتفون ضد الإرهاب

الذي يعني النضال ضد المحتلّين، ويؤيدون ويدعمون من يعتقل ويقتل ويخنق شعباً في وطنه المحتل.

ليس لقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة التي تمثل أمم الأرض قوة الإلزام أو التطبيق، بينما لقرارات مجلس الأمن (مجلس الأقوياء) مثل تلك القوة.

ويطبّق بعضها في مكان، ويطلب من الآخرين تنفيذها حرفياً، بينما تُترك قرارات أخرى للمجلس نفسه حبراً على ورق.

تسوّق علبة السجائر وعلى غلافها عبارة محذّرة من التدخين.

إنها بعض مفارقات هذا الزمن، وغيرها كثير.. وهي تعبر عن انتظام مدار هذه الكرة المأهولة واستقرار جموحها، واعتدال دوارها.. وتكوُّنِ الحق والمنطق وفق العيون والمنظار والموقع..

إنها مفارقات تكاد تُضحك من يبكي، وتُبكي من لم تزل لديه الرغبة بالضحك على شر البلية، أو حتى على نفسه!

]]]

كلمة السر العالمية!!

لست من متابعي الموضات، ولا من العارفين بـ (الموديلات)، ولا من الساعين إلى تمثلها، أو تجسيدها، أو الانصياع لهيمنتها. ولا أرى في ذلك عيباً أو نقيصة، بصرف النظر عن رأي الآخرين، ولا أجد فيه إحساساً بالنقص أو بالزيادة. تلك حقيقة، فالأمر لا يعنيني، ولا يشغلني بأية درجة.

كنت كذلك حين لم يكن باستطاعتي الملاحقة اطلاعاً وممارسة، وما زلت! لأنني لا أستطيع أن ألبس إلا كما أحب، ولا أعيش إلا كما أرغب، في الحدود التي تمكنني من ذلك، من دون تجاوز لحدود الآخرين بالتأكيد، تلك الحدود التي تقرها القوانين والأعراف والأخلاق العامة.

وبالاستطراد والعلاقة وكون الشيء بالشيء يذكر، فلا يمكن أن أنساق مع التيار، أي تيار، بشكل أعمى، أو أمضي حسب ما تقتضيه الرياح، في أي وقت هبت، ومن أية جهة اندفعت. ولم يكن ذلك سهلاً، وما يزال كذلك، ولن يكون هيناً.

ولا يعني هذا القطيعة مع الآخرين، أو الانبتات عن المشاركة في فصول العيش وطقوس الحياة واشتراطاتها

ومتطلباتها.. بل يعني أن الاقتناع بالأمر هو المعيار، بلا عناد أو مكابرة، كما أحسب وأتمنى.

أقول هذا الكلام، وبالعودة إلى ما بدأت به، وأنا أفكر في أعناق الرسميين في العالم، الاقتصاديين منهم والسياسيين والمثقفين.. الذين يظهرون على الشاشات المتعددة في المحطات المتكاثرة، في العواصم كلها، وفي الأوقات جميعها.. ومنهم من يكون أمامك أو إلى جوارك.. تلك الأعناق المزينة بربطات ملونة، يجمع بينها شكل متقارب أو متشابه أو متطابق، كل موسم (في هذه الأيام تهيمن الخطوط المائلة بثخانات وألوان مختلفة).

أنظر إليها وأضحك، أتساءل وأكتئب: ما السر الذي يجعل غالبية الأعناق مشدودة إلى شكل واحد، أو مربوطة بالطريقة نفسها. ما السر الذي يجعل اللون الأزرق مثلاً هو اللون الأكثر حضوراً، ناهيك عن شكل القَبّة أو الخصر، أو أطوال الأكمام ووسعها، أو نوع القماش وعناصر التشكيل والتزيين.. أما السالفان فتلك قضية أخرى، والأحذية مسألة عصية.

ما هي القوة التي تخطط وتأمر على مستوى العالم؟! وما الطرق التي تسلك لذلك؟!

بالتأكيد ليست العادة والتقليد واللامبالاة هي المسؤولة وحدها عن ذلك! أتساءل، وأنا أعلم أن بيوتات الأزياء (العالمية) تقر ذلك وتعرضه، وتبثه أفكاراً ومواد وأشكالاً، يتباهى بها ساكنو القرى النائية في الجبال أو السهول، إلى جانب أبناء المدن الكبيرة والصغيرة، في المؤتمرات والندوات والاجتماعات، وفي المناسبات

والوظائف واليوميات، وعبر مختلف الشرائح والأجيال. وتتنافس في إظهارها حتى الكائنات التي لا تكاد تشبع، لأن في ذلك زعماً أو وهماً أو توهماً باكتمال الشخصية التي ينقصها الكثير مما يلزم كي تقف على طولها متوازنة مرفوعة الرأس، غير عابئة بما يقال، ويروج، ويسوق بأكلاف تكفي لحل أزمة الفقر في أركان العالم المتعددة. وليت الأمر يقف عند هذا الحد من الأشياء والأشكال والمواد.. لكن الموضة تنتقل إلى الأفكار والسياسات والثقافات؛ بل ربما تنطلق منها!

فهل مصادفة أن تصبح المقاومة الوطنية المشروعة لأي شعب يتعرض لعدوان سافر أو احتلال مفضوح، في حاجة إلى محاولات مريرة لتمييزها عن الإرهاب؟! وهل من المصادفات أن تصبح كلمة إرهاب حجة وسبيلاً لقهر الشعوب، واحتلال الدول، واتخاذ القرارات الدولية الملزمة في هذا الاتجاه أو ذاك؟!

وهل عفو الخاطر تتوالى التصريحات في عدد كبير من عواصم القرار والعواصم التابعة لها، ومن مسؤولين مختلفي الأهمية والدرجات، بخصوص قضية من القضايا في مكان ما من العالم وبتواتر عجيب؟! ولا تلبث الاتهامات والطلبات والأوامر أن تنهمر كي تدخل هذه الدولة أو تلك، ذاك الحزب أو ذلك التيار، هذه المؤسسة أو تلك المنظمة، في فلك الموضة السياسية السائدة المعممة، لتنفذ رغبات الأقوياء التي لا تأخذ الحق معياراً بالضرورة؛ بل المصلحة بكل تأكيد، المصلحة التي تقررها ضرورات الاستغلال والسيطرة والنهب والقمع، وإسكات أصوات المقاومة, أو إرادة الصمود والدفاع عن الهوية والمصير والوجود المهدد من قبل قوى الشر

المهيمنة، والتي لا تتورع ولا تتوقف عن إطلاق كلمات السر التي تتخذ في بيوتات أخرى مشابهة، ويتم الترويج لها والتلويح بها، ونكاد نرى ونسمع ونشم ونحس أصداءها السياسية والثقافية والاقتصادية، في مختلف المواسم والجهات والطقوس التي يمكن أن نتوقعها أيضاً، وقد تصبح برامج علنية، أو قرارات مشرعة في مواقع مشهودة أو عبر مؤسسات دولية لا يترك لنا القادرون فرصة التكهن بها؛ ناهيك عن فرص مقاومتها!

مع ذلك، لست من محبي الموضة بأي شكل أتت، ولا من الراغبين في الامتثال لسلطانها مهما تزينت، وتواترت الإعلانات عنها، وتزاحمت العروض وتكاثفت الدعوات إليها وتعاذبت، وتصاخبت؛ ولا أحسب أنني وحدي!!

[[[

كائنات غير عاقلة!

من المشاهد التي تلحّ على الذاكرة، وليس من دون مسوغ كما أحسب، فيلم أبطاله كائنات حية، تسري الدماء في عروقها لكنها غير عاقلة! وفيه تهاجم مجموعة من الكلاب البرية قافلة كبيرة من بقر الوحش.

ليست الحادثة هي المثيرة في ذاك الفيلم؛ بل الطريقة التي تتم فيها ذلك، والنتيجة التي تؤول إليها مع اختلاف العدد والهياكل.

البقرات هائلة العدد. مختلفة الحجوم، تسير في صفوف عديدة متداخلة متطاولة. وفي مكان ما من الطريق، تظهر بضعة كلاب، تعترض مسير القافلة، تقترب غير مسرعة ولا متهورة. وإن كانت غايتها واضحة، وأهدافها جليّة!! تتقلقل حركة القافلة، وتضطرب صفوفها، وتبدأ بحركات الهروب الحذر، أو الهروب الخجل؛ تسرع قليلاً في دبيبها، تحتمي ببعضها ببعضاً، يزاد تكاثفها، وترتد أطراف القطيع المنتشرة، وتظهر عليه علامة الجبن الجَمْعي، أو أنه يلوك الخوف المزمن. بينما تتبختر الكلاب قليلة العدد، مرفوعة الأذناب والآذان، تفتح أشداقها كل حين، وهي تقترب وتبتعد، تساير القطيع حيناً، وتضغط جوانبه أحياناً

بحركات لا تنقصها الدربة، ولا تفوت المراقب العادي الغاية منها.

المثير، وربما المحزن، أن القطيع لا يحاول مرة واحدة أن يقف، أن يلتف أن يهجم. وهو لو فعل لاستطاع سحق المهاجمين، وإخراجهم من الوجود، بالرفس ليس إلاّ.. يحاول نفر من القطيع ذلك منفردين. حين يتعرض أحدهم لمراودة الكلاب العنيدة، مناورةً وغاراتٍ وهمية مراوغة ومختبرة. لكن المحاولة عاجزة حتى عن تأمين الخلاص الذاتي على الأقل.

وتستمر هذي الحال، مسافة مهمة وزمناً وافراً، من دون أن يتغير شيء؛ بل تزداد مناورة الكلاب، ومضايقتها، ويزداد تسارع القافلة الكثيرة، وتداخل أبقارها، مختبئة رؤوسها وراء مؤخرات بعضها بعضاً، في حركة لا تبعث على الثقة، بالنسبة لأفراد القطيع، ولا تخيف المرافقين الشرسين المنتظرين عثرة أو تخلفاً أو فرصة استفراد.. لا تلبث أن تحدث، حين تحاصر الكلاب واحدة من القطيع، تسد طرقها، مانعة إياها من اللحاق بزميلاتها اللواتي يجرين بلا اهتمام، ولا تهرع أي منها أو تلتفت لنجدة من وقع في المصيدة العلنية، رغم أن قرني كل منها يكفيان لتمزيق أي حيوان مفترس بضربة واحدة، لكنها لا تقوم بهذا، وقد عرفت الكلاب هذا السر، خبرته من غريزتها وتجاربها العديدة السابقة، فلم تعد تلك القرون تخيفها، ولا ترى فيها سوى زينة قديمة، أو ذكرى غابرة لقطيع فرح ربما ــ بنجاته وابتعاده عن الخطر ـ وإن كانت نجاته آنية، فلا الرحلة انتهت، ولا الكلاب ستشبع من تلك الضحية التي تمارس حيالها غريزة السادية والعدوانية والدموية؛ إذ يهجم

أحدها إلى ظهر البقرة، يتعلق بها بأسنانه، ويقفز آخر إلى الخاصرة الأخرى، يهشمها، ويمضي ثالث إلى الرقبة، بعد أن تكون الضحية قد أنهكت من المداورة والمواجهة ومحاولة الهروب في طرق مسدودة، والنظر صوب الغبار الذي أخفى معالم القطيع..

سقطت البقرة في براثن اللحظات القاتلة التي تتوالى، مع أفظع صور الوحشية من العض والتمزيق والنهش والرفس..

والمثير أيضاً أنه ليس الجوع هو وحده وراء هذا الهجوم، وليست غريزة الطعام وحدها هي المسؤولة عن ذلك؛ بل إن هناك رغبة واضحة في الإيذاء، في التشفي، في قصاص لذنب غامض.. هناك رغبة في قبض الحياة من كائن يملك القوة ولا يستخدمها، يملك الإمكانية من دون أن يدري، أو يرغب في الاستفادة منها في الوقت المناسب، وربما في أي وقت، والمثير أكثر أن هذه الأبقار نفسها يمكن أن تتخاصم فيما بينها خصاماً شرساً، تستخدم فيه كل ما لديها من قوة مناطحة ودفع ووثب وطعن بقرونها الحادة. وربما اكتشفت حينئذٍ إمكانيات العض والنهش وسواها..

تلك حيوانات، أو هي كائنات حية غير عاقلة بالتأكيد، ولكن، ما رأي الكائنات العاقلة جداً في مثل هذا؟!

العاهة المعكوسة

وأنت تمرق في الزحام، عبر صرير الحاجات وسياط الواجبات ولكز الزمن، بين اللهاث والأنين والتدافع، وأنت في السباق الدهري تخوّض في المفازات الضيّقة والساحات المكتظة والدروب الطويلة، تستوقفك يدٌ ممدودة، أو نداءٌ ممطوط، أو طلب ملحٌ..

تحاول أن لا تتوقف لتنظر إلى من فقد القدرة على الرؤية، أو السماع أو المشي.. فأصحاب العاهات يجب ألا يكون مكانهم هنا؛ هناك دور العجزة واليتامى والمعوقين، تلك أمكنة تستقبلهم، وتعتني بهم، وتعلمهم وتدربهم، وتكفيهم شرَّ السؤال ومذلة الوقوف مثل هذه المواقف.

وأنت تغالب مشاعر متناقضة بين التعاطف والإشفاق على هؤلاء، وبين الانزعاج، والانقباض من طريقتهم هذه في العيش (الكريم)!

تدور في ذهنك فكرة أخرى: هل الذين لا تبدو عاهاتهم أصحاء تماماً؟!

الفكرة ليست لك.. فكرة العاهة المعاكسة: إنها للفيلسوف (نيتشه). إن صاحب العاهة المعاكسة شخصٌ فقد كل شيء، ولم يبق لديه سوى شيء واحد. أو بصورة

ألطف: شخص لديه الشيء القليل من كل شيء، والكثير من شيء واحد. تطوف ابتسامة ساخرة، وأنت تتصور قامةً بشرية تعلوها عينٌ فحسب، عين تحدق في كل شيء، عين حاسدة لا تشبع.

أو أذن وسيعة لا تمل التنصّت والاستماع لالتقاط أخبار الفضائح والخلافات والإشاعات..

أو فم واسع يلوك ويلوك، بأسنان لا ينجو منها عظم..

بلسان لا يتعب من الحركة، يبث الأخبار المؤكدة والمضللة..

وقد تدور قامة بيد تمتد بلا خجل أو خوف أو تردد.

أو ببطنٍ منتفخة تتسع لكل الفرائس حتى لو كانت حيّة..!

هؤلاء هم أصحاب العاهات المعكوسة.. ومشكلتهم أنهم غير معروفين تماماً، وليس من السهل الإشارة إليهم أو إقناعهم بحالهم، والمشكلة أنك مضطر للتعامل معهم..

وإذا كان ممكناً تأهيل أصحاب العاهات العادية في دور ومدارس وتجمعات ومؤسسات، يتعلمون ويكافحون، ويكتفون ليتمكنوا من العيش الكريم؛ فأية إمكانية لاستيعاب أصحاب العاهات المعكوسة، وأية مقدرة على التفاهم معهم، وضمان الأمان في التعامل وإياهم؟

أصحاب العاهات العادية يمكن إحصاؤهم..

أما أصحاب العاهات المعكوسة.. فهل يمكن ذلك؟!

وما هي نسبة أمثال هؤلاء بيننا؟!

]]]

عظّم الله أجركم

ـ الحقيقة، الواحد يشتهي الموت!

هذا الكلام ليس لامرأة منكوبة، أو لرجل مقهور؛ بل لشاهد على جنازة مهمة. وكنا عائدين تواً.. قلت له:

ـ هل تمنيت أن تكون هذه الجنازة لك؟!

انتفض مذعوراً: بعيد الشر.. فأل الله ولا فالك يا رجل!

قلت: إذن؛ ماذا تعني؟!

فكر قليلاً.. ثم أجاب بشبه انكسار:

ـ أعني.. حقاً، إذا كان يمكن أن يحدث لي مثل هذا العرس.. لا بأس بالموت!

ـ ولماذا لا يحدث لك ذلك؟!

أجاب بسؤال: وهل يحدث لك أنت؟!

ـ أنا لا أفكر بهذا الموضوع، ولم أشتهِ الموت من أجل هذا.. أو غيره..

شرد ثم أضاف: يعني، إذا وُجد للإنسان مثل هذا الحشد لتشييعه، الأمر ليس بسيطاً، وله مغزى كبير..

ـ ما رأيك أن تفعلها وتجرّب!!

ـ أتسخر مني؟!

قلت مخففاً: لا.. أنا لا أسخر منك؛ بل أريدك أن تتذكر أن الموت موت، سواء مشى في جنازة الميت عدد قليل أو كثير..

ـ صحيح أن الموت موت، ولكن.. ليس الأمر واحداً، هناك فرق كثير!

ـ ولم هذا الحزن والأسى؟! أنت لم تمت بعد، ومن قال إنك لن تشيّع بما يليق؟!

قال بحسرة: لا لا.. هل نضحك على بعضنا؟! مستحيل أن يحضر مثل هذا الحشد.

ـ هل تعترف أن سمعتك وأعمالك ليست على ما يرام؟!

ـ ومن قال لك إن هذا ما يجمع المشيّعين!! أنت تعرف سمعتي وسيرتي!

ـ إذن ما الذي يلزم لذلك!!

ـ سأقول لك لأختصر الحديث، رغم قناعتي بأن هذا رأيك أيضاً: يلزم أن يكون لك ولد مهم!

ـ أو أن تكون أنت مهماً، وهذا يا حسرتي..

أسرع إلى الاعتراض: لا لا.. هذا غير مطلوب!

قلت باستغراب: ليس مهمّاً أن تكون هاماً ليصير لك موت يليق؟!

ـ لو مات المهم، لما كان من الضروري الاهتمام بالأمر.. أما وفاة الوالد، فهذا يعني أن كثيرين سيظهرون أمام الولد المسؤول!

ـ هل تعنـي أن الـذين حضـروا الآن ليسوا حـزينين على المتوفّى؟! أو لم يأتوا من أجله؟!

ـ ليس كلهم! وأنت تعلم أنه كان مريضاً ومقعداً منذ سنين، ولا يشكل غيابه فراغاً. ثم أضاف: أما لاحظت كيف كانت الأحاديث مشرعة، وكل المواضيع ممكنة؟! هل رأيت علائم الحزن على وجه أحد؟!

قلت: هذه مبالغة، وأعتقد أن عاداتنا جميلة، ولاسيما في الوفاة؛ فهي معبّرة حقاً ومواسية فعلاً، وأتمنى أن تستمر ونحافظ عليها.

نظر إلي شزراً: هل تستخف بي، أو تهزأ مني؟! هل قلت أنا غير هذا؟!

قلت: هذا طبيعي، فلكلٍّ معارفه، وأصحابه، وسمعته.

أضاف بحدة: ولكل حساباته المختلفة، بغض النظر عن أعماله وسلوكه وأخلاقه..

قلت: الحساب على الخالق! ما لنا نحن؟!

توقف، نظر إليّ.. هز برأسه مرات، ثم قال بانفعال: عظّم الله أجركم! وغز السير في طريق جانبية تقوده إلى داره.

[ ]]

بلاستيك!

ليس لعقدة قديمة منه، أيام كنّا نقتنع رغماً عنّا أنّ الحذاء البلاستيكي هو الأفضل، لأنه الأوفر، والأكثر مقاومة للماء الذي يملأ حفر الطريق وأخاديد الدروب.. وإن كان سيحرق أصابعنا التي لا يفصلها عنه جوارب، في الأيام الحارة التالية، أو يستبدل بـ (شحاطة) بلاستيكية أيضاً؛ ولا لأن شروخه المتسارعة لا تندمل حتى لو لحمت بأسياخ محماة برائحة خانقة؛ ولا لعقدة حديثة راجت وتروج بين حين وآخر، يُحمَّل فيها البلاستيك بتشكيلاته المختلفة جزءاً من مسؤوليات "خبيثة"، وليس لأنه بلا صدىً أو رنين، مع طعم خامل ورائحة لا تستساغ.

ليس من أجل هذا كله فحسب أكره البلاستيك؛ بل لأنه صار كل شيء، وفي كل وقت ومكان، حتى ليمكن أن تطلق على الحياة صفة البلاستيكية.. إنه يلاحقك منذ أن تفيق على نبض بلاستيكي من ساعة بلاستيكية. وتهرع لتحلق ذقنك بآلة بلاستيكية، وتنظف أسنانك بفرشاة من الصنف عينه، وتمشط شعرك، بأمشاط بلاستيكية. وتتمرّى بمرآة مؤطرة بالبلاستيك، وتضع الروائح والمطريات من أدوات بلاستيكية، تجلس على

كرسي بلاستيك، وتركب في حافلة مقابضها ومقاعدها وأدواتها جميعها من البلاستيك، وتستمع إلى أغانٍ بلاستيكية! وحين تكتب، يتلاعب بين أصابعك قلمٌ بلاستيك، وتخطط بمساطر ومثلثات من المادة إياها.. وتواجهك على المكتب الذي غطاؤه من البلاستيك وروردٌ بلاستيكية. أطفالك يلعبون بالبلاستيك ويلهون بأدواته. ولعل ما هو أخطر من ذلك كله، وما هو مثار جدل لا ينتهي، أن الطعام جلّه يقدم ويحفظ أيضاً، وينقل في درجات مختلفة من الحرارة برودة أو سخونة بآنية من البلاستيك.. وكذلك الشراب بأنواعه وباختلاف ضروراته ماءً أو ملونات أو مشروبات أخرى، وباختلاف أشكال أدواته، بدءاً من الكأس مروراً بالأباريق والسطول والأوعية الأكبر، حتى البراميل وما زاد عنها، ومنها ما يسخن كهربائياً بسرعات قياسية.. وهذا الأمر هو ما يجعل بحث تأثر مركبات البلاستيك بالحرارة وتفككها وتداخلها وتفاعلها مع المواد الموجودة في تلك الآنية يأخذ أبعاداً جدية.. ويطرح مقولات بعضها خطير مفزع، والآخر مطمئن.. وإضافة إلى هذا كله، فإن للبلاستيك قواماً مراوغاً، يمكن أن يأخذ أي شكل لأي قالب، وهذا ما يوجب محايلته لدوام أكبر ومقاومة أعظم، تقويةً وإضافات وألواناً وتشكيلات.. ليصبح ممكن التجاوب أمام ضرورات الاستخدام المتنوعة..

إنه ـ ورغم أنه مطلوب ـ ليس محبوباً، فهو ساحجٌ ملامسةً، لاذعٌ احتراقاً، لاسعٌ برودة، ومشرعٌ حساسيةً، ومقلقلٌ قواماً.. جراحه لا تندمل، وخرابه لا يُبتنى، وتشوهاته إلى ازدياد، وسقوطه نهائي، وحضوره قابض..

والأنكى من ذلك كله، أن كثيراً من الكلام الذي تسمعه مصبِّحاً أم ممسِّياً، مهنئاً أو معزّياً، لا يختلف وقعه وطعمه ورائحته عن البلاستيك..

وكثيراً من العناق المناسباتي، والاحتضان الواجباتي، والمديح والإطراء، وكذلك الوعود التي ترش، والأماني التي تنثر.. هي من الصنف ذاته! فهل تحولت بعض الكائنات إلى كائنات بلاستيكية؟! وهل أصبحت تتكاثر العلاقات البلاستيكية، والعواطف والمشاعر والانفعالات.. والقرابات والصداقات والشراكات.. أقوالاً وأفعالاً ولقاءاتٍ واتفاقات وعقوداً ومسؤوليات..

أخشى أن يتحول البحر إلى صفيحة من البلاستيك.

والأمواج والغيوم والأمطار والأنهار والينابيع..

وأخشى أن يكون لهذه الكلام صدىً بلاستيكي!!

]]]

الترف

ماتت ديانا..

والكلام على الأموات لا يجوز.. لكن هذا الكلام ليس عنها؛ إذ لم يكن لها ذنب في أن تصير محور اهتمام العالمين، سوى أنها أعجبت ولي العهد، فاختارها لتكون أم الملوك.. ويا لها من حظوة!

الكلام ليس عليها، فقد كان لها من بعض الصفات ما قربها من القلوب، أهمها تمردها على صرامة التقاليد الملكية، واقترابها من الناس، وسعيها لتقديم بعض الخدمات الإنسانية كمرض الإيدز وغيره..

الكلام لا يخصها تحديداً؛ بل هو عن الظاهرة..

الكلام على هذا الترف الذي وصلت إليه حضارة العاقلين! فما معنى أن ينشغل الكون بهذه القصة الأسطورية، بدءاً من الزفاف الذي جرّ مع ذيل فستانها الطويل آهات طويلة.. وأسال لعاب المتابعين والمتابعات في أصقاع الدنيا؛ حيث نقلت الطقوس الكرنفالية على الأثير! وكان ذاك مثيراً، لكنه لم يكن سوى الحلقة الأولى من مسلسل درامي توالت حلقاته المقعقعة من خلافات وخيانات واعترافات وانفصال وطلاق.. وظن "المراقبون" أنهم استراحوا، والمشغولون أنهم تنفسوا الصعداء؛ لكن السيرة لم تنقطع، وإن كانت أخف ضجة

أو ملاحقة؛ فهي لم تعد زوجة ولي العهد، وليست من الأسرة المالكة، لكنها مازالت أم الملك الذي قد يؤثر سلوكها على سمعته ومستقبله، هو الذي ما زال في العقد الثاني من عمره، إلى أن كانت النهاية المأساوية والموت المؤثر، ولكن ما يعزينا أنها ماتت وفي قلبها "هوى عربي"!!!

المفارقة التي لا يمكن تناسيها، هي أن الاهتمام والملاحقة والتصوير والكتب والأفلام والمقابلات الفضائحية.. كل ذلك تصدر واجهة الإعلام في الخمس الأخير من القرن العشرين. هذه الفترة بالذات شهدت أحداثاً ومتغيرات هائلة: حروب أهلية ودولية، كوارث طبيعية، تفككت اتحادات وتكاثرت دول، تفاقمت الأمراض، وتآكلت البيئة، وازداد انثقاب غلاف المحمية الأرضية.. والأهم هو النتائج؛ حيث مات الملايين، وشرد الملايين، وتعذب الملايين.. لقد ازدادت عدوانية المعتدين، وشراسة المغتصبين ومآسي المساكين..

كل هذا يجري، والعالم مشغول ومنشغل وشاغل بحكايات وشائعات ووقائع علاقة زوجية فيها حيثيات، كما في أغلب العلاقات الزوجية في أي مكان من العالم مع اختلاف الإمكانيات والوسائل والإعلام..

بالطبع الأمر لا يتعلق بديانا نفسها، بل بأية فتاة كانت ستختار ـــ لحظها المشهود والمحسودة عليه ـــ لإنجاب ملوك يملكون ولا يحكمون.. وهم بالتالي بعيدون عما يجري في الدنيا، لأن لا رأي لهم ولا دور ولا سلطة ولا سياسة.. إلا السياحة ومتابعة الطقوس وتوزيع الألقاب والحفاظ على السمعة والنسب.. هذا قدرهم/ حظهم/ فوزهم.. وعلى الآخرين أن يهتموا، يتعجبوا،

يعجبوا.. يتابعوا ويلاحقوا كل جديد.. في هذه السيرة المظفرة..

إنه ترف العالم الذي يجري، بلا تفكير أو هوادة، للوصول إلى أجمل تسريحة وأحلى لون شعر وأرقى ياقة.. في حين أن الأقدام حافية تخوض في الوحل، أو تتقلى في جمر النار.

]]]

تعميم!

يكـاد يكـون التعمـيم ظـاهرة طاغيـة فـي الأحاديـث والنـدوات والملتقيـات.. سـواء علـى صـعيد الأشـخاص العـاديين أو الأشـخاص المهمّـين، كمـا يحـدث حتـى علـى منابر الإعلام الأرضي، أو عابر القارات.

وهي ظاهرة، أقل ما يقال فيهـا، إنهـا ظالمـة مشوِّشـة مُضيِّعة للوقت والجهد والأفكار والحقوق والهوية.

وإذا ما حاولنا مراجعتها، فإننا يمكن أن نـرى أسـباباً عديدة وراءها، منها ما يتعلق بالمتحدث نفسه، فقد تكـون إحاطتــه بالموضــوع الــذي يتحــدث فيــه غيــر عميقــة، ومعلوماته غير دقيقة؛ إضافة إلى افتقاده أدوات البحث أو هوايته أو جدّيته أو مسؤوليته.

ومنها ما يتعلق بـالمتلقي، من جهة خوف المتحدث من المواجهـة مـع هذا المتلقـي، الـذي قد يكـون صـاحب سـلطةٍ أو جـاهٍ أو مركـز اجتمـاعي أو أدبـي، وربمـا كـان علـى اطـلاع أدق فـي الجانـب المطـروق، وقـد يخشـى المتحدث أن تثار قضية كبيرة في ما إذا مُسَّ طـرف هذا المتلقـي الـذي قـد يكون فضفاضـاً! وهنـاك أسـباب تتعلـق بـالمنبر نفسـه، أو المكـان الـذي يجـري فيـه الحـديث، فقـد يشترط هذا المكان، علـى مـن يـود الظهـور منـه، شـروطاً

بطريقة مباشرة. كأن يطلب من المتحدث أن لا يتطرق إلى "ما يسيء إلى أحد"! وقد تكون الشروط غير مباشرة، وذلك عبر معرفة المتحدث المسبقة للحدود التي لا يجوز تجاوزها من هذا المنبر. ولذلك عليه، كي يحظى بشرف الإطلالة على الجمهور من خلاله، أن يتوخّى الحذر والسترة.. والتعميم..!

ولا شك في أن هذا مرض خطير من الأمراض الكثيرة التي يغص بها العصر، ولعل هذا من المفارقات المضحكة المبكية..

ففي الوقت الذي توالي فيه العلوم اكتشافاتها شديدة الخصوصية، وتخصصاتها شديدة التنوّع. ويوالي الباحثون التوغّل في أعماق الأرض والكون والكائن، والدخول في أية ثغرة أو شقٍّ في جدران الوجود والمعرفة والمجهول، للوقوف على تفصيلات وتوصيفات وميزات خاصة جداً، يستفاد منها في مشاريع حضارية جديدة؛ في هذا الوقت بالذات تجري على السطح المسابقات المحمومة والمنافسات المشكوك في براءتها للوصول إلى أبعد بشريٍّ في أسرع وقت، وبأرخص الأثمان، والإمساك به من رغباته وحاجاته، ومراودته عن عمق الحياة بالقشور، وإلهائه عن التفكير بإنسانيته وكرامته، بالأفكار العائمة والبرامج سهلة العبور والهضم، والمقولات الجاهزة. ويشارك في هذا ـــ مع الأسف ـــ المفكرون والمثقفون والباحثون الذين عليهم أن يتقنوا "الدبلوماسية"، حتى في غير السياسة، ليكونوا مقبولين مطلوبين. وفي هذه الحال تضيع الخصائص، وتُموَّه الثقافات الخاصة، وتُمحى العلامات الفارقة، ليصبح المرء "عالمياً"، وعليه أن لا يؤذي الآخرين حتى

بالكلام ــ وربما بالأحاسيس والملامح ــ ولو كان هؤلاء الآخر ون معتدين غاصبين. وإذا كان هذا الأمر مقبولاً وفق ما تقتضيه "قوانين" الإعلام، فإن ما يزعج فعلاً، هو انتشاره حتى على صعيد الأحاديث اليومية، إذ ينجو المتحدث من الردود والمناقشة، وتضيع التقويمات، ويضيع الصالح بالطالح. وأكثر ما يحزّ في النفس، أن تجد مثل هذه الحال على صعيد المحاضرين المثقفين والمفكرين والنقاد في الملتقيات والأمسيات.. حيث تحضر البحوث والدراسات بسرعة، وتقدم على عجل، وتتبخر معلوماتها المعممة على عجل. وتكون الفائدة إعلامية بحتة، حيث يسجل إنجاز في سجل المقيمين والمحاضرين؛ أما المتلقون فتسجل في ذاكرتهم خيبة أمل أخرى.

وبعد:

أليس في كلامي تعميم؟! لعله الداء الذي لا أدّعي البراء منه.

ويمكنني أن أسوغ ذلك بالقول: إن الحيّز لا يسمح بأكثر من ذلك، أو إن المنبر يوحي بهذا، أو إن الوقت ضيّق على التفنيد والتحديد، ولكنها أسباب تضاف إلى ما ذكرناه سابقاً، وأقرّ على الفور أنها لا تُرضي. ولا بد للوصول إلى واقع أكثر نقاء، وحال أكثر صفاء.. وفضاء أكثر شفافية، ومعرفة أكثر عمقاً، ومعلومات أكثر دقةً؛ ولا بد من تسمية الأشياء بأسمائها!

وجوه!

ليس جديداً القول إن للنظرة الأولى تأثيراً مهماً، ليس في إيقاد شعلة الحب فقط، فقد تعطي انطباعاً مباشراً عن الوجه المنظور مريحاً أو قابضاً، إيجابياً أو سلبياً، جاذباً أو منفّراً. وهذا المبدأ ليس تامَّ الصحة موفور الدقّة، لكنه إحساسٌ لا تستطيع تجاهله أو تجاهل تأثيراته عليك، وربما على موقفك وعلاقتك مع بعض الأشخاص. وقد يتغير هذا الانطباع بعد تعدد اللقاءات، أو بعد التجربة إن سمحت الظروف بها، كما قد يتأكد ذاك الإحساس الأولي ويتعمق..

ومما لا شك فيه أن لبعض الأشخاص ملامح قاسية وتعابير جافة، توحي بوعورة العلاقة وصعوبة الاتصال. غير أن كثيراً منها يحمل في طياته طيبةً وصدقاً وإمكانيةً للقاء والتواصل والمشاركة.

كما أن لبعض الوجوه ملامح هادئة مريحة، تحس بألفة معها، وسرعان ما تشعر بالأمان قربها، حتى لو كنت لا تعلم عنها كثيراً. وهذا لا يمنع إطلاقاً من تجنّب الإفراط في الثقة بتلك النظرة الأولى والبناء عليها، وتوخّي الحذر من إطلاق العنان للمشاعر أن تفيض فتغرق؛ إذ إن لبعض الناس القدرة على التمثيل أو

التمويه أو التحايل حتى في ملامح الوجوه، ولبعضهم إمكانية التقنّع إلى أن تحين الفرصة للانقضاض، وهذا لا يعني أن يحس المرء نفسه كأنه في غابة موحشة، ويتوقع الكمائن خلف كل أكمة، أو الصيادين في كل معبر؛ لكن لا بأس من الثقة بالنفس أولاً، كي يكون الخطو متوازناً وتبقى الطريق آمنة، والغاية ممكنة التحقيق.

وكذلك؛ لا بأس من الثقة بالآخرين بما يكفي لكي تكون فرصة لإثبات حسن النيّة من دون إعطاء الأمور مساحة حركة كبيرة، يصبح الرجوع صعباً والخسارة عصيّة على التعويض.

وأكثر ما يثيرني ويقلقني تلك الوجوه المحايدة الخالية من أي معنى، تلك التي تحتار حتى بعد لقاءات عديدة وتفرّس واستقراء، كيف تصفها أو تفسرها؛ فهي خالية من الملامح، أو الإيحاءات أو التعابير أو المواقف؛ إذ إن أي أمر لا يهم، في السياسة في الفلسفة، في المجتمع، في الاقتصاد.. في الدين.

هناك أمر واحد فقط، هو أن تظل أمورهم ماشية، وأحوالهم مستقرّة، ومشاريعهم في تقدّم مطّرد؛

إن صيّفتْ فكروا بما يلائم المصيّفين، وإن غيمت أو أرعدت وجّهوا اهتمامهم إلى المعاطف والمدافئ والمظلات؛ موجودون في كل حين، وفي أي موقع وفي أية متابعة، يواسون ويهنئون ويقدمون الهدايا، يرفعون النعوش، ويرقصون، يساومون على القروش ويتبرّعون.

يتقاتلون فيما بينهم ــ سراً ــ على الإرث والكنز والأرض والبحر وراتبك وموقعك، ويتفقون على تقويمك وتصنيفك ودروشتك وغبائك.

يقيمون كل الطقوس الدينية والسياسية والاجتماعية، ويبالغون فيها، ويحصلون منها على كل ما يمكن من مكتسبات.. وهم مؤمنون بأن لكل نصيبه من الدنيا حسب ما يستحق و(ليس ربك بظلاّم للعبيد)، والآخرة لمن صبر فظفر.

إنهم أصعب من النفط الحامي، وأقسى من الحليب المغلي، وأضيق على النفس من الضباب الصباحي؛ إنهم لزجون دبقون، إنهم العلق الذي لا يشبع ولا يتخم.

العلاقة معهم ورطة، والعيش قربهم ذنبٌ عصيّ، كفّارته لا يمكن دفعها، لأنهم يكونون قد سحبوا كلفتها، وقبضوا سلفاً أتعابها.

ومن هنا يبدو للعبارة الشهيرة "سيماهم في وجوههم" بعض المصداقية أو المسوّغ ــ والعرب كانوا مشهورين بالفراسة ـ كما إن فيها قدراً كبيراً من الأماني والآمال. لكنها لا تصِحُّ لاستخدامها قاموساً مطلقاً، ولا بأس، قبل النظر والتفرس في وجوه الآخرين والحكم النهائي حولها، من النظر إلى الوجه ذاتياً من خلال استكناه نظرة الناظر نفسه إلى الآخرين، ما يريده لهم ومنهم، وقراءة ذلك قراءة متأنية ــ رغم أن هذا ليس يسيراً على الكثيرين ـ وعندها يمكن اختصار كثير من الخيبات، وتجاوز كثير من المطبّات، والعبور بأيسر السبل، وأقل ما يمكن من خسائر في الوقت والنفس والأشياء الهامة الأخرى!

]]]

أعياد ومعانٍ..

تعود الأعياد كل عام، وهذا ما يدفع إلى التساؤل بتأمل وبعض مرارة ـ ربما ـ عن معنى العيد وجدواه؛ كيف نفهمه وننتظره ونعيشه ونعبره أو يعبرنا.. وماذا يترك من أثر؟!

ولا أعتقد أن مثل هذه التساؤلات تشوّش جوهر هذه الأعياد، أو تؤثر سلباً على قيمتها المعنوية والإنسانية. ولا أحسب أن تأثيرها هذا يداني ما يسببه طغيان المفهوم المادي على طريقة تعاطينا مع هذه الأعياد، وعلى تلك المفاهيم القيمية التي كانت أصلاً وراء عدّها أعياداً..

وسأوغل في الأسئلة أكثر لأقول: هل هذا التحول ناتجٌ عن تحوّلٍ في نمطِ الحياة بشكل عام إلى نمط استهلاك وتمتّعٍ مادي فردي وأناني، أثر ويؤثر باطراد على كثير من المعاني الإنسانية التي بدأت تنزوي خلف مظاهر وتحركات، وبتبجحات مختلفة.

وهذا كله لا يمنع؛ بل ربما يقود إلى التساؤل بكثير من الشعور بالمسؤولية عن المعنى العملي أو الواقعي لمفهوم المعلم أو الأم أو الأضحية..

كنا ومازلنا نطلق صفة المربي بلا تردد، على كثير ممن علّمونا في شروط وظروف وإمكانيات لا تساعد

على تقديم الكثير.. وقد حذفت كلمة التعليم من اسم وزارة التربية لأن التربية والتعليم متماهيان بمعنىً واحد. وهذه حقيقة لا جدال فيها، وتعطي العلاقة بين المربي وتلامذته مفهوم الأبوة بحساسية أقل ربما.. ومن هذا المنطلق، وبمزيد من المسؤولية، أترك أمر الإجابة على السؤال التالي للمعلمين أنفسهم وللمتابعين عن قرب:

كم من المعلمين اليوم يمكن أن يُطلق عليهم صفة المربي، من دون أن تكون فضفاضة؟! ولا يمكن قبول وضع المسؤولية على الظروف والراتب وسوى ذلك، لأن الظروف كانت أقسى، والشروط أصعب، للمعلم والطالب معاً، سكناً وتنقّلات وإمكانياتٍ وأماكن. ومن هذا الباب أقول: إن العلاقة بين المعلم والطالب لا يمكن أن تقف عند حدود تقديم هديةٍ للمعلم في عيده، وترديد بيت الشعر الذي صار لازمة تتكرر في كل عام وكل موقع، وتتصدر كل كلمة أو حديث في هذه المناسبة، تجعل من المعلم يقارب أو يكاد الرسول، وكأنها رد فعل ذاتي أو تعويض لأمر يفقد الكثير من مدلولاته وخصائصه ولآلئه.

ويمكن أن ينسحب الحديث بإطاره العام إلى عيد الأم، وأعتقد ــ وأرجو ألا أكون مغالياً ــ أن معنى الأمومة ذاته يقترب من أن يصير موضوعاً إشكالياً. ولكي نقترب من الموضوعية أكثر، نقول: إن ذلك لا يتوقف على الأمومة، أغنى المفاهيم وأقربها للقداسة. ولا يمكن أن يقتصر إحياؤها على تقديم هدية للأم وإشغال الأطفال بذلك، وترديد مقولات تجعل الأم مدرسة، وتوهمها بأنها تهز العالم باليد الأخرى، إن هي هزت السرير بيد.. هذا السرير الذي لم يعد يُهز بيد الأم

لانشغالها وإشغالها بأمور أخرى.. وأستغرب كيف يمكن أن يصبح مفهوم الأم الوالدة المربية قاصراً عند الكثيرات.. أو أنها مهمة غير كافية أو مقنعة بالحضور الفعال والجدوى والأهمية، وكيف لا يكون الفصل بين مفهومي الوالدة والمربية التي يمكن أن تكون غير الوالدة، هو الأمر الذي لا يليق..

وما قلناه عن عيدي المعلم والأم يمكن أن ينسحب بشكل أو آخر أعياد الفطر والأضحى والميلاد وسواها؛ فلا يمكن أن يصبح العيد أكلاً وشرباً فحسب؛ بل مبالغة في الأكل والشرب، ولا يمكن أن يتضخم معناه، إذا ما ازدادت الموائد أصنافاً وألواناً وطعماً.. واُخْتُصر حاضروها.. ونكاد ننسى المعاني الأخرى للعيد الذي يجمع بين القلوب ويؤالف بينها، ويقرب البعيدين، ويزيد في وداد القريبين.. وفي حين كنا نبالغ في احتفالنا بالمناسبتين السابقتين: المعلم والأم، في ذكر المقولات النظرية حولهما، ننسى في مناسبة الأعياد الأخرى، ما قيل عن فظاعة أن يشبع من كان يعلم أن جاره يبيت جوعان؛ ناهيك عن التبذير والبذخ بما يكفي الكثيرين شر الحاجة والإحساس بها، ويجعلهم يحسون طعم العيد، ويعيشونه كباقي خلق الله..

]]]

عطلة..!

كنت وما أزال أخاف من يوم الجمعة، أو بتعبير آخر، من العطلة الأسبوعية، أو العطلة بشكل عام.. وما زالت الخيبة التي تصيبني عند انتهائه تجعل من الاستعداد لأسبوع عمل جديد متردداً، أو مشوشاً أو منقوصاً..

وفكرت طويلاً في هذا الأمر، منذ سني الدراسة الشاقة، إلى سني العمل الأطول والأكثر شقاء.. حتى في أيام العمل الحر.. ولم يكن التغير في الإحساس الذي يداهمني يوم العطلة مهماً.

إنه قضية هامة يجب التفكير فيها ودراستها، عن طريق علماء الاجتماع والنفس ربما.. ولعل السبب هو المفهوم الذي يمثل واحداً من المفاهيم التي لا تعطى حقها، أو بمعنى آخر، تمارس مشوهة؛ أذكر أن المذاكرات والوظائف المهمة كانت تحدد بعد يوم العطلة أثناء المدرسة، وتؤجل إليه الأعمال المجهدة في البيت والأرض خلال سنيّ الوظيفة؛ فيغدو جدول يوم العطلة، الذي يجب أن يكون مستراحاً ومقيلاً من عناء دوام الأسبوع وانشغاله، مكتظاً بما هو ضروري وشاق وملح.. وما إن يمضي، حتى يبات (المعطل) منهكاً

مكدوداً.. فكيف سيكون استعداده للعمل في الأسبوع التالي؟!

وهل نذكر بالعاملة وربة البيت في آن واحد، تلك التي تترك هي الأخرى كل الأعمال التي تحتاج إلى وقت أطول، إلى يوم العطلة، فأية عطلة ستكون؟! وبغض النظر عن نوع العمل الممارس أيام الأسبوع، ومقدار التعب الذي يعتري هذا العامل، بالمفهوم العريض للكلمة الذي يعني كل الموظفين والأحرار أيضاً.. فإن مجرد الالتزام بالدوام ساعات محددة، والارتباط بالعمل والانشغال به حتى لو كان اهتماماً بطرق التحايل على العمل والدوام، يفرض فسحة من الراحة أو الترويح أو الخلاص ـ ولو كان مؤقتاً ـ من اشتباكات العمل..

لقد صار لدينا كمعظم البلدان المشغولة يومان للعطلة، وخمسة أيام عمل حقيقي، وهذا أمر جيد؛ إذ إن العمل يأخذ حقه من الجهد والإتقان، والعطلة تعطى حقها، وتعاش بمعناها وجوهرها الحقيقي.. وما زلت أشك في أن المشكلة عندنا هي في عدد أيام العطلة؛. بل في قدرتنا واستعدادنا النفسي والبدني لصرف ساعات العطلة كما يجب، وإعطاء العمل ما يستحق..

الخيبة التي تتكرر كل عطلة تأتي من تبخر الأمل الذي يلوح كل يوم عمل بأن العطلة تقترب، ليحل محل هذا الأمل وعد بتنفيذ عمل آخر، والقبض على ساعات أكثر إجهاداً، في يوم العطلة.

وربما تأتي الخيبة أيضاً من أن أعمالاً كثيرة كان مقرراً لها أن تنفذ في يوم العطلة (المنحوس)، لم تكف ساعاته لإتمامها، خاصة في الأيام الشتوية قصيرة

النهارات.. فترجأ مع ما سيستجد من سواها إلى يوم عطلة آخر.

لقد تحول يوم العطلة ـ عندي على الأقل ـ إلى كابوس حقيقي.. وعند كثيرين غيري؛ وربما عند آخرين قد يجدون في أيام العمل بساعاتها الكثيرة حتى الإضافية منها فسحاً للراحة أكثر، ومجالاً أوسع للتعطيل، وربما تعطيل أعمال ومراجعين ومشروعات ملحة.

]]]

الزمن!

يسيل الزمن من دون توقف، غير عابئ بنا بشراً لا تعدو أوقاتنا في حضرته امتداداً في الاتجاهين أن تكون بلا قيمة مهمة.. لكنه من دوننا يكاد يكون من دون معنى!

هل في هذا الكلام مبالغة؟! ربما.. لكننا حين نتحدث عن الزمن الذي يخص هذا الشكل من الحياة الذي نمثل خلاصته، أو كائنه الأرقى، يكون الكلام مقبولاً بشكل أو آخر؛ فحياتنا قصيرة، وعبورنا متسارع، وبقاؤنا فترة أطول يكون عبر ما يُترك من سيرة، وسلوك، وأعمال تخلد وقتاً إضافياً، يساهم في مضاعفة العمر الذي يحسب على المرء سنوات.

يسيل الزمن من دون توقف، بحيادية، ومن دون لون أو شكل أو رائحة..

نحن الذين نلوّنه، أو نشكّله، أو نعطيه الرائحة.

نحن الذين نضخّ فيه الحياة.

هل هو ميت؟!

أحياناً يكون ذلك، نحسّ أنه لا يسير، حين نكون في ورطة؛ ذلك لأن مسيره أقل من أمنياتنا بعبوره، أقل من لهفتنا لانتهاء المصيبة التي ستنتهي.. لأن الزمن سيوالي

سيره، وستتغير الظروف، ستتبدل العناصر؛ لكننا نودّ أن يسرع، وإن كان ذلك من أعمارنا التي لن تتكرر، لأن من الظلم أن تعدّ أيام الشقاء من العمر المحدود، وإذا ما استثنيت من العمر، ما الذي يتبقى؟!

وعلى العكس من ذلك، نحاول أن نبطئ سيره، نوقفه لو نستطيع، حين تكون الحال ميسّرة، سارة، في فترات النجاح، والفرح، واللقاء السعيد. مع ذلك هو لا يعبأ بأمنياتنا بالتريّث، أو الهدوء أو الانتظار؛ سيسيل أيضاً.. لتنتهي هذه الفترات، كأنها الحلم!

العمر قصير؛ كم هو جميل أن تكون نسبة الأوقات التي نحس أنها مسرعة إلى الأوقات التي نحس بغلظتها مرتفعة!! كم هو مناسب أن تكون الأوقات المشغولة بعمل يخلّد حسناتنا ومشاعرنا الطيبة وعطاءاتنا للآخرين وفيرة!!

الوقت يسيل من دون توقف؛ يمكن أن نتعلق بعرباته، يمكن أن نقف في وجهه، فينال منا.. يمكن أن ندير ظهرنا له، فيمضي مقهقهاً من بلاهتنا، ونلهث خلف أصدائه.

الزمن لا يسير ولا يتوقف، نحن الذين نتحرك إيجاباً أو سلباً.. نحن الذين نعطي بحرارة، ونبذل بمودة، ونمشي بحماسة، ونعمل بجد، أو نأخذ بأنانية، ونطلب بقسوة، ونقعد بلا مبالاة، وننام بلا أحلام..

الزمن وجه لنا، وجوه للحياة، كما نراها، نتمناها، نحياها، نخسرها أو نربحها.. نحن سنمضي، وسنترك لسوانا أمر الزمن يطارده أو يهرب منه، يتعلق به أو

يهمله، ويهمل بالتالي نفسه وقدره وسيرته وعمره، ليغدو كأنما لم يأت..

أقول هذا الكلام، ونحن في معرض الاستعداد لمفصل زمني يهتم العالم به. ونحن في محراب الانتقال بين سنة وأخرى، وبمناسبة الاحتفال أو الانشغال أو المرور برأس سنة جديدة، بصرف النظر إن كان رأساً أو شيئاً آخر.. وبغض الطرف عما إذا كانت سنة أو عقداً أو قرناً أو شهراً أو يوماً أو ساعة أو دقيقة أو حتى ثانية..

إنها وحدة زمنية ما تتكرر بتفاوت بين شخص وآخر؛ تتدحرج، لتترك حيزاً يجدر بنا أن نملأه، بما يريح أو يسرّ. عندها يصبح سهلاً عليها حملنا في مسارها، بدل أن تكون عبئاً يثقل علينا رؤوسنا وعقولنا وأكتافنا وأقدامنا وأنفاسنا.. التي لا تفتقد الكثير من الأعباء الباهظة، والتي تكاد لا تحتمل.

]]]

الصيف!

في الحادي والعشرين من حزيران كل عام، يبلغ النهار مداه، ويبدأ العدّ العكسي لأوقاته، ويبدأ معه الإحساس بالفقد.. هذا الإحساس الذي يتكاثف كلما أوغلنا في الصيف انقضاءً، واقترب فصل آخر، وفصول..

على العكس من ذلك، وفي خضمّ الشتاء، وحين يصل تضاغط النهار إلى منتهاه، ويبدأ بالتمدد، يتحرك الشعور بالانفراج، يدفئ اللحظات والآفاق المكتظة بالقلق والسواد..

وعلى الرغم من أن الصيف يبدأ ذلك الوقت، وأن لديه أيامه الكاملة.. فإن الشمس تصل إلى نقطة الذروة في أفق الغروب، لتعجز عن تجاوزها، فتعود أدراجها مكرّسة التراجع كل مساء، وهذا ما يحرك ذلك الإحساس القابض الذي لا يرعوي، رغم محاولتي التشاغل عنه، بالتفكير بالصيف ذاته..

ربما كان ذلك رهاباً قديماً مرتبطاً بضيق الأنفاس الشتوية، وضعف الحمايات، وشحّ الأركان الدافئة والفسحات المضيئة والمفازات الآمنة، آناء تلك الشتاءات القارسة..

الصيف متكارم رحب، منفتح إلى الجهات، منفلت من حصار الثياب وضغط البروق والرعود وشدّ الالتزامات..

الصيف كان كذلك، وكان حريصاً على المساواة بين الكائنات المصِّيفة.. حتى غير البشرية منها، ويمتاز بأريحية الخطو صوب الجنى والسمر واللهو الشريد.

كان الصيف امتداداً إلى الحقول والبيادر والطبيعة والبحر، كان مزيجاً من الفوضى البريئة، والانطلاق المحدود المدى، غير المحدد الأوقات والغايات.

الصيف كان وكان..

الآن.. لم يعد كبير معنى لمنعطفات الأوقات هذه وتلك؛ هل فقد الصيف براءته؟! أم أن البراءة ذاتها أصابها مسّ الزمن المجنون؟!

هل المشكلة في الصيف أم في المصيّفين؟! أم في التلوث المادي والمعنوي الذي تقدم بخطا ساحقة؟!

ورغم أنه لم يعد كبير معنى للكثير من الانعطافات في الزمن وغير الزمن، يمكننا أن نتساءل بكثير من المرارة: هل الانقلاب الصيفي انقلاب عصري في التفكير والتسيير والتحضير لمصائد لا تنتهي لضحايا يتكاثرون.. فيرجئون الأحلام، أو ينقطعون عن الانشغال بالزمن والفصول والمواسم وأشياء كثيرة أخرى؟!

]]]

جار البحر

أن تكون جاراً للبحر؛ تلك فضيلة لا تعرف قيمتها، ولا تقدرها حق قدرها؛ لا تستطيع، ربما، لعلة فيك؛ لم تتعوّد مجاورته ولا محاورته، لعظمته أو لغموضه، لاتساعه الجليل، لصفائه المثير وهدوئه المراوغ، لقدرته وتواضعه، لغضبه وحلمه، لنفوره وتودده، لصلفه وغروره وتماديه وعناده، لرأفته ونوسانه وانفتاحه وسكينته.. أو لحساسيتك، وتواضعك، لسرّ يجعل منك بحراً يغار ويحرد، ويجعل منه كائناً يحسد وينتقم!

أو لأمر لا علاقة لك به، ولا علاقة له!

قد يكون الآخرون اقتربوا منه أكثر، تمسّحوا بزبده، ركبوا أمواجه، وامتهنوا الركوب؛ استأثروا بكل صفاته، وكانت ظلالهم وأشياؤهم وسِيَرُهم تحول بينك وبينه، وما زالت تحاول وتصرّ وتتمادى وتتفاخر.. فهل كان لهم ما أرادوا؟! وأين إرادته هو؟! إرادتك؛ رغبتك ورغبته؟!

*

أن يكون البحر موضوعاً، سيقف المرء إزاءه مضطرباً، وهو يحاول التعبير عن بعض عناصره، وملامسة بعض خصاله التي تبدو، تُحس، تُلاحظ،

وتطوف على الأسماع.. ويقلق المرء لإحساس بالعجز الذاتي، أو شعور بعظمة الآخر؛ فماذا تستطيع الكلمات أن توصّف؟! وما الذي تستطيع الأوزان أن تعوّم؟! ومن أين للألحان أن تستشعر؟! وكيف للريشة أن تغرف من زرقته؟!

البحر يستحقّ أكثر من أن يكون موضوعاً لمناسبة، هو أكبر من المناسبات، ويستحقّ أن يكون أغنى من معلومات للجغرافيا، وموضوع للتعبير، ومساحة تكاد أن تغطي اليابسة، أو عناصر للتشبه، وكائنات للغذاء والثراء، والغرابة، أو مقابر لسفن ومغامرين ويائسين..

*

أن يكون البحر إبداعاً، فتلك مسألة جديرة بالاهتمام.. لمن يحسّ ويقدّر؛ أما من يأخذ الأشياء بسطحية، ويؤخذ بالمظاهر والمرئيات والمحكيات، وينتظر من جراء ذلك التصفيق أو التتويج، ويغدو البحر لديه على جبروته مادة ومفردات ونتائج؛ فليس له إلا الزبد الذي يطفو هنيهة، ليضيع.. ويبقى الموج، والشطآن والعمق البعيد المغري.. والصراع السرمدي الذي يعطي للأوقات معانيها، وللحياة مسّوغها، إذا كان من مسوّغ، وللأحاسيس جدواها، إذا لاح من جدوى!!

ويليق به أن تتمثّله كائناً لا ككل الكائنات، أن تتلبّسه فاعلاً خصيباً، أن تغوص في لجّته بارعاً في البقاء، وأن تطفو على حضوره القلق، مبسطاً أطرافك، مرسلاً بصرك، مطوّفاً بين زرقة مملّحة تُشتهى ولا تستطاب، وزرقة مقببة تستثير ولا ترعوي..

يليق به أن يأخذك في رحلة لا تُحدّ، ولا مشكلة في انتهائها، وأن يسحبك من أحلامك، مخاوفك، رغباتك، نزواتك إلى أمدائه المترامية، ومغانمه المبذولة، وفصوله الملونة، وحكاياته التي لا تفتقد العبث والشكوى، وأشراكه التي لا تتعب، ودهاليزه التي لا تخلو من أنين..

وجميل أن يدعوك، ولستما على وفاق! ويليق بك أن تلبي، لعلّ في بعض أركانه مستراحاً، ومقيلاً، أو أرجوحة للفائزين.. لعلّ في بعض أقداره حورية تستحق، وتليق..

لن تختار، واثق أنت من ذوقه، ولستما على وفاق!! لن ترتدّ، أو تتراجع؛ فأنتما تليقان، صنوان، أو ندان.. وإن لم تكونا على اتفاق!! ليس هذا مقياساً؛ لم تجرّبا؛ لم تتح لك السبل، من جرّاء الظروف أو التفاصيل أو الأقدار الصغرى منها قبل العليا..

لكن ذلك ليس بالأمر الذي لا يعوّض، والخسارة ليست نهائية، ما دمت قادراً على اللهفة والتّوق والرغبة والانعتاق، وما دام قادراً على الالتفات نحوك، والانشغال بانشغالك؛ ما دام قادراً على المصافحة من دون لطم، والاحتضان من دون هصر، والتمثل بلا ابتلاع.. ولو إلى حين!!

ليس هذا بالشيء الكثير بالنسبة للبحر القديم الجديد المستديم، وجار البحر المقيم.

وهو بالنسبة إليك مدعاة للسعادة والانشراح، فقد قرّبك من لدنه أكثر، وأحسست بالانتماء إلى إبداعاته.

إضافة إلى الألفة التي تجمع البحر وجيرانه وضيوفه، والمودة التي تصطبغ بها أوقاته، والغنى الذي

يمكن أن يتحصّل في لقاءاته وحواراته، والإبداع الذي يشع في مشاهده ولوحاته وحالاته على تنوّعها وتمايزها.. مع كل تلك البساطة الموحية، والشفافية الموشّاة بالاتساع والعذوبة، والقرب والتقارب بين البحر ومريديه، والإبداع وعشاقه؛ كل ذلك يجعل من أوقات البحر مناسبات جديدة بالاهتمام والتفكير والسعي للقاء بين البحر وجاره، حتى لو لم يكونا على وفاق!

]]]

هدايا

هل يحتاج الحب إلى برهان؟! والود إلى عنوان؟! والفرح إلى دليل؟!

وكيف تتحول المشاعر إلى ماديات، والعواطف إلى حاجيات، والأحاسيس إلى أدوات!!

كيف تصبح العلاقات هدايا؟!

وإذا قبلنا أن مفهوم الهديّة رمزٌ معنوي، يعبّر عن مدى ما يحس المُهدي تجاه المهدى إليه، فهل يصح أن تتناسب قيمتها الماديّة طرداً مع عمق ذلك الإحساس؟!

وماذا يفعل الذين لا يملكون ما يوازي إحساسهم ذاك؟! هل يستدينون؟!

وماذا يفعل الذين لا يملكون مثل ذلك الإحساس، فهل يستعيرون؟!

لا أعلم ماذا يبقى من هذا الرمز ومن معناه وجدواه إذا كان يغصّ أحدنا إذا سمع بولادة أو فرح قريب، ويقول ـ في نفسه على الأقل ـ: هاهو قسط جديد استحق تسديده!

ويغصّ أكثر وهو يفكر في الثمن الذي سيدفعه، ويراجع حسابات علاقاته الثنائية مع صاحب الاستحقاق

الجديد: هل تلقّى هداياه من قبل؟! كم مرة حدث ذلك؟! ماذا كانت تلك الهدايا؟! وربما يعود إلى دفاتره التي سجل فيها الهدايا التي زارته في مناسباته السابقة، إن وجدت.

وسيفكر في المستوى العام لصاحب الاستحقاق هذا، وأين سيكون موقع هديّته بين الهدايا الأخرى!! وهل تليق به أو بسمعته!!

ويضج التساؤل: أين المشاعر التي ستعبّر عنها هديةٌ يفكّر بها بهذه الطريقة المعقّدة، تلك التي ستتعقّد أكثر إذا كانت ستقدم الهدايا علناً وتحت الأضواء والعيون الكاشفة، وأمام عدسات (الفيديو) والكاميرات الأخرى، وعلى أنغام الفِرَق الموسيقية التراثية المعصرنة..

فهل يليق، وأنت مختارٌ من بين المقربين أو الأصدقاء أو القادرين على الدفع، مدعوٌّ إلى حفل (بهيج) إلا أن تبيّض الوجه/وجهك على الأقل في زمن الحضور الذي ينتثر عرقاً وقلقاً؟! أما في ما بعد، فليسودّ وجهك ما شاء لك الوقت والأيام والمناسبات!

وما الذي يبقى من المودة والصداقة والقرابة إذا كانت الهديّة تتقدم صاحبها والأنظار تتجه إليها قبله وبعده، وما الذي يبقى من زيارته أو تهنئته أو حضوره من ذِكرٍ سواها؟!

إذاً كان هذا ما يحدث في المستوى العادي من الحياة، ولا تتجاوز الهدية زجاجاً وبياضاتٍ وألعاباً وثياباً لازمة.. وما خف من المعادن البراقة؛ فماذا يمكن القول عن الهدايا الأخرى التي تبدو سِيرُها وحكاياتها كأنها

أساطير (الآخرين) الذين يسكنون كواكب أخرى، رغم أن أصحابها أحياءٌ بيننا (يرزقون)، كمفتاح الشقة أو مفتاح السيارة، أو الأثاث الفاخر؟!

وماذا يمكن الحديث أيضاً وأيضاً عن الهدايا من دون مناسبات؛ تهبط مفاجآتٍ سارة متوقعة أو غير منتظرة؛ فماذا تحمل من رموز المودة والعواطف، والأحاسيس والإنسانية؟!

في بعض البلدان الهدية ليست سوى وردة (حمراء على الغالب).

وفي هذه الحالة يتساوى كل الناس هدايا، في إعطائها واستقبالها، كبر المُعطي أو صغر الآخذ، أليس في هذا قيمة ثمينة ومعنى إنساني وعمق مودة، رغم أن ثمنها زهيد يكاد لا يُذكر؟!

ولا أعتقد أن ما يمنعنا عن مثل هذا العرف حفاظنا على ورودنا، وإبقاء بيئتنا مزيّنة، فما يقدم من أكاليل لا يساعد على هذا التفسير؛ ولو وزّع أي منها وردة وردة لكفى نصف سكان الحي أو القرية أو المؤسسة.

الفارق بين هدايا تلك البلدان وهدايانا، أنه لا ينظر هناك إلى ثمنها ومستوى مقدمها والمقدَمةِ إليه.. ويُكتفى برمزها الإنساني..

وهو فارق ليس قليلاً كما أعتقد!!

]]]

الثالثة ليست ثابتة!!

قُبلةٌ على الخد اليمين، وأخرى على الخد اليسار، أما الثالثة فمختلف عليها! يمكن أن تكون على الخد، أو على الكتف! وفي الحالة الأولى كثيراً ما لا تفهم أنها الأخيرة، فتستتبع بواحدة على الخد الثاني، وهكذا.. أما أنها على الكتف، فهذه إشارة إلى انتهاء السلام (القُبَلي). لكن مشكلة أخرى قد تفرض نفسها، تتمثل في سوء التفاهم الذي قد يجر إلى اصطدام، يمكن أن يكون الأنفان فيه هما الخاسرين الأكبرين!

وهذا الأمر يمكن أن يحدث في أي وقت، ومع أي شخصين، حتى لو كانا في حيّز واحد أو دائرة واحدة، طالما أنه لا يوجد قانون موحد، ليصار إلى اتباعه أو مخالفته!

وقبل الاستطراد لا بد من تأكيد أمر نقرّه، هو أن هذا النوع من السلام حضاري؛ فهو أفضل بما لا يقاس من تقبيل ظاهر القدم، أو ظاهر اليد، وأرقى من تبويس الشوارب؛ لأن كثيراً من الناس ليسوا من أصحاب الشوارب!

لكن هذا لا يعني أنها طريقة مناسبة بإطلاق؛ بل إن فيها ــ كغيرها من الإنجازات الحضارية ــ عيوباً

ونواقص ـ مع الأخذ بالاعتبار النظرية النسبية في مثل هذا التشبيه!

فإلى وقت قريب، كان حديثاً يحكى عن معانقة فلان فلاناً، وكان هذا دليلاً لا يرقى إليه الشك، على ودّ وشوق ولهفة، وطبيعي أن مثل هذه المشاعر ليست واحدة لكل الناس.

وكنتَ تحس بالاكتفاء بالسلام يداً بيدٍ مع هزات يختلف عددها، ويتناسب الود طرداً مع زيادة عدد الهزات أو شدة الضغط على راحة الكف.

ولم تكن في هذا مشكلة كبيرة، حتى إن أَعطيتَ أحدهم هزّةً أو هزّتين (على البيعة). لكن الأمر تفاقم حين صارت هذه الهزات الإضافية تمنح للكثيرين، وهذا يستدعي وقتاً أطول، وتمرينات مستمرة على اليدين، كي لا تنخلع أو تنصدع اليد المسلّمة. ولكي لا يحدث تشوّه بين الكتفين الأيمن والأيسر، لنموٍّ في الأيمن وضمور في الأيسر حسب المبدأ الطبيعي (الذي لا يعمل يضمر!).

وحين كان عدد الذين ترى أن في معانقتهم ضرورة، محدوداً، كان الوضع مناسباً، وكان التمييز بهذا النوع من السلام ممكناً، لكن الحال أيضاً لم تستمر على هذا النحو؛ فصار تعبيراً لازماً للتهنئة في المناسبات السعيدة، وعمق المواساة في المحزن من المناسبات. ثم تعدت ذلك إلى كل اللقاءات في أي وقت أو أي ظرف. وإضافة إلى الإشكالات الخارجية الناجمة عن فروق في الطول أو الحجم، وفروق في سيد الوجه (الأنف)، ووجود نظارات طبية وغير طبية، وذقون مشعرة وأخرى منعّمة، وحالات التعرق، ودلالات السخونة على

زوايا الشفاه. فإن زيارات مهمة في أعداد المرشحين (المزكّمين) وانتقالات العدوى في بعض الأمراض التي ما زال بعضها غامضاً، جعلت كثيراً من الانقباض والتردد يلي التفكير في مثل هذا السلام.

والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو: لماذا هذا الشعور الذي يجعل العناق عنوان كل لقاء؟! وإذا كان لا بد من إجابة، فإني أقول إن هذا يماثل حلف الأيمان المغلّظة، هذا الذي لا يكون ضرورياً إلا عندما يشك بأن الآخر لا يصدق ما يقال؛ فهل يحتاج الود حقاً إلى كل هذه القبل؟! وهل يدعم التقبيل الشره الود والحب والصداقة أو يخلقها؟! وإذا كان يمكن تجاوز مشكلة القبلة الثالثة غير الثابتة، فإن السؤال الآخر الذي يمكن أن نفكر فيه جميعاً هو حول الطريقة التي ستتبع بعد انتهاء مرحلة السلام (القُبَلي). وإذا كان سيمتنع الذين سيقرؤون هذا الكلام عن معانقتي بعد ذلك، ستكون أولى علامات نجاح الغاية منها قد أشرقت!!!

]]]

صار عندي محمول!!

لو عاش ابن قريتنا حتى هذا الوقت، لدهش أو فرح لتحقق نبوءته أو إرهاصاته، كما لم نعد ندهش أو نفرح، نحن الذين كنا نضحك منه، ونتندّر على حديثه مع نفسه وعراكه مع الآخرين، رغم كونه وحيداً في الطريق أو الغابة أو أي مكان آخر؛ سيدهش حين يراني في الأمكنة ذاتها، أو في أماكن مشابهة، أو متباينة، أتحدث كما لو كنت أتحدث إلى نفسي، ويتحدث سواي ويتواعدون، ويتعاركون، ربما، عبر أجهزة صغيرة محمولة!

لا يستطيع أي منا أن يتجاهل أهمية التطور، ودور الإنجازات والاختراعات الحديثة في التواصل الأسرع الذي صار من أهم سمات العصر الذي نعيش فيه، والتشارك الأوسع الذي يؤدي، كما يفترض، إلى مزيد من التقدم والمكتسبات والمتطلبات التي لا تنتهي لدى هذا الكائن /العاقل/ الذي لا يهدأ له بال، ولا ينوس حلم، ولا يتلاشى قلق!

لكننا في الوقت نفسه، لا يمكن أن نتجاهل أيضاً، أن المشكلة تكمن دائماً في الاستثمار؛ أي في استخدام هذا الإنجاز أو ذاك الاختراع في ما يلزم ويفيد ويمتع بحسبان.

يحق لي الكلام في الموضوع بعد ما صرت من أصحاب الهاتف المحمول أو الخلوي (التسميتين المشروعتين حسب مجمع اللغة العربية)، بعد أن كابرت، وعاندت، حتى صار موقفي موضع تهمة تحملتها، وشفقة لم أستطع تحملها!

يحق لي الاعتراض على الجانب الاستعراضي الذي يأخذه هذا الإنجاز الحضاري لدى الكثيرين من مستخدميه، ولا يقتصر عليه؛ إذ يمكنني الامتعاض من هذه العدوى التي تستشري لدى الناس في الإسراع لاقتناء ما لدى الآخرين، وسلوك ما يسلكه الآخرون، والتحدث بما يقوله حتى المدّعون الثرثارون، ويتبنى ما يراه المترفون، في الثقافة والسياسة والاقتصاد أيضاً.. بل في طرق تمضية أوقات الفراغ، والعطالة، والاستراحات التي لم تعد متيسرة كما ينبغي.

وهذا لا ينفي أهمية الخلوي في أوقات معينة، وفي حالات خاصة. ولكنها لا تسوغ الانشغال الدائم بأنواع موسيقاه وإيقاعاته المتنوعة والمتشابكة، الضاجة والهامسة، المثيرة والمحفزة والمقلقة، في الاجتماعات والندوات والأمسيات، في البيت والشارع والموقف والحافلة.. وفي الصفوف الدرسية، وفي المكاتب والدوائر والإدارات والمؤسسات.. وما يتبعه من أصوات ونبرات لا تقل استفزازاً، وأنت تسمع حواراً من طرف واحد ينوس ويشتعل، يحن ويخشوشن، يتسارع ويتباطأ..! مع ما يسبق ذلك، وما يليه من تنبيهات وانشراحات.. أو دهشة أو تساؤل، من أصحاب المحمول والمشاهدين والمتابعين في المواقع المختلفة، حتى غدا الجهاز جزءاً من زينة أو قدر أو تفاخر وامتياز..

بالأشكال والألوان والميزات التي يمتلكها، والأوضاع التي يتخذها، إلى درجة أنه يمكن أن لا يغادر اليد، لأن الأهمية والمسؤولية تستوجبان ذلك، حتى لو كان حامله بلا صفة أو وظيفة أو عمل!

ومن دون أن نغفل أو نتجاهل ما يحكى عن أخطار صحية على العقل والذاكرة والأعصاب، برغم ما يتداول أحياناً من إنكار لذلك، والجدل الذي لا يني يدور في هذا المنحى أو ذاك.. والشكاوى المتنامية من عبء الرسم الشهري الذي يتجاوز لدى الكثيرين مقدار ما صرف على الاستعمال.. لا يمكنني إلا أن أتساءل بكثير من المرارة:

هل صحيح أن أعمالنا ومشاريعنا وظروفنا وحتى طموحاتنا تتطلب كل هذا المقدار من الحكي، وكل هذا القدر من الاضطرار، وجميع هذه الحوارات البعيدة؟!

وإذا أضفت إلى كل ذلك الأوقات والأحاسيس والانفعالات والأكلاف، سيغدو التساؤل أكثر إلحاحاً!

وبإضافة الأوقات الأخرى للطعام والنوم والإنجاب والتربية، والانشغالات بالمتطلبات الاستهلاكية الملحّة والزائدة، ما الذي يتبقى من وقت للعمل والإنجاز؟!

وهل هذا المحمول ضروري لكل هذه الشرائح في أعمارها وأعمالها؟! حتى صار جهاز ضغط آخر على المداخيل والأسماع والأذهان والأوقات، ومطلباً عنيداً للصغار والكبار، المشتغلين والعاطلين، المسافرين والمقيمين، المتفائلين والقانطين، القادرين والعاجزين..

لقد ضاقت الأوقات حتى على ممارسة أعمالنا الاعتيادية؛ ناهيك عن التفكير والتأمل والإبداع، والبحث

عن حلول لقضايانا ومشكلاتنا ومتطلباتنا التي هي في ازدياد.

صار عندي محمول.. هي بشرى أزفّها للمرحوم ابن قريتنا، الذي كان سيفرح لأني خلفته في طباعه، لكن الفارق الوحيد والكبير بيني وبينه، أنه كان يختار محاوريه ووقت الحوار، وينتقي الموضوع الذي يطوره معهم وإيقاعه ومداه، فيقنعهم، أو يعاركهم حتى يغلبهم، ويمثّل بهم! أما أنا فليس لي من حيلة.. وليت هذا يكفي!

أقول هذا، ولديّ قناعة تكاد تكون تامة، بأن الكلام في هذا الموضوع لا يفيد، كما الحديث حول الأغنية الحديثة، وضرورة الامتثال لأصول السير، والشكوى من تعويم معايير الفساد والمحسوبيات والمصالح..

لكنها زفرة، أو صرخة، أو أنّة.. أحسست أن من الواجب إطلاقها، بعد أن صار عندي خلوي محمول!

]]]

فضل القيمة

ليس المقصود من هذا العنوان، ما يعرف من فضل القيمة في الثقافة الاقتصادية؛ بل هو أمر آخر، قد لا يبتعد كثيراً في طريقة الحساب، ويختلف مقارنة بالأجر إلى حدّ بعيد.

أذكر أنني قرأت للأديبة الباحثة الاجتماعية والنفسية الدكتورة نوال السعداوي تعريفاً للحبّ فحواه: الحب هو ما يتبقّى من المشاعر الطيّبة بعد إشباع الرغبات.

سأستفيد من هذا القول أيضاً، لأعرّف قيمة المرء بأنها: ما يتبقّى له عند الآخرين من احترام وتقدير، بعد أن تزول عنه مظاهر النِّعم المكتسبة من خلال زهو المنصب، وبهارج الموقع، وتزيينات المسؤولية، وجاذبيّات الحاجة، ومسبّبات الخوف، ومثيرات الحواسّ، ومسيلات اللعاب..!

إنّها القيمة التي تُبقي (الانسان) واقفاً، وتسنده إذا ما أزيحت الكراسي من تحته، والدعائم من جنباته؛ إنها الرافعة التي تحافظ على رأسه مرفوعاً، إذا ما ارتاح، أو أريح من الحسابات والمهام والأعباء؛ هي الطاقة التي تجعل الآخرين مشدودين إليه، وهو عالي الهامة، ثابت

الخطو، متماسك البنيان.. إذا ما انفضّ عنه المنتفعون والسماسرة وضعاف النفوس و"القائمون عليها"!

كثيرون كانوا في مواقع مهمّة، وانتهت مهمّاتهم بطريقة أو أخرى؛ وكثيرون ما يزالون في مواقع منظورة، سيتركونها ولو بعد حين؛ وآخرون ينتظرون، وسيتبوؤون مناصب مشتهاة، ولن يدوموا إلى الأبد.. هذه حقائق لا شك في مصداقيتها، وإن حاول الكثيرون تجاهلها، أو التغافل عنها، أو المكابرة حيالها؛ إنها الحقيقة التي يخافها –ربما- العديدون؛ يقول المثل المعروف: ما متّ.. ما شفت من مات؟!

ومن الناس من فقد كل شيء، حتى حرّيته، مع فقده المنصب؛ ومنهم من افتقد الاحترام والتقدير، رغم أن هؤلاء وأولئك يملكون الكثير، ويركب الكثيرون منهم سيارات مشابهة لتلك التي كانت لديهم أيام العزّ، ويملكون ما عداها من أموال وأطيان!

وفي الوقت نفسه؛ فإن من التّاركين المناصب والمسؤوليات أناساً ما يزالون يشعّون نقاء، ويتورّدون رضا، ويجتذبون الاحترام والثناء والشكر.. حتى إن كانوا يمشون، أو يقعدون، أو ينامون قريري العيون! وحتى لو فقدوا اهتمام البعض، ومراجعات البعض الآخر، وافتقدوا امتداح مروّجي ثقافة الفساد والإفساد، وطالبي القرب المجزي من السلطة أو الكراسي أو النفوذ..!

هناك من جرّب، وعاش اللحظات التي حلّت بحدّتها ومرارها، ممن ظنّوا أن النّهاية لن تأتيهم إلا كما يشتهون، وخابوا.. لأنهم لم يحسبوا حسابها كما يفترض،

وآخرون كانوا على يقين من أنّها ستحلّ بكامل متعتها ولذّتها، ممن أدّوا الأمانة، وقاموا بالواجب، واستراحوا، وأراحوا ربما!

وهناك من سيجرّب، طال الأمد أو قصر، ارتفع المنصب أم استقرّ.. ومهما اختلفت طبيعة المسؤولية بين مُنتخَب أو مُعيَّن، مُرفَّع أو مُختار!

يمكن، ببساطة وجرأة، لكلّ من هو في موقع منظور، أن يسأل نفسه السؤال السهل العصيّ:

أين هي قيمتي؟! من أين تأتي؟! وهل ستنتهي إذا ما وقع المقدّر؟!

فمن كانت قيمته تنبع من الكراسي والسيارات، أو دعم الأيدي الخفيّة أو المنظورة، أو المرافَقَة، أو المال، أو الجاه، أو الامتداح المبالغ به بثمن أو من دونه.. سيجد نفسه فقيراً حتّى إلى من يلقي عليه السلام، أو يجامله في وحدته، أو مرضه، أو حاجته، ولن تنتهي الحاجات..!

أمّا من كانت قيمته، وما تزال، أكبر من الكراسي، وأبهى من جميع المظاهر، وأبلغ من التحدّيات المزيّفة، والانحناءات المواربة.. ستكون الحال لديه مختلفة بعد انقضاء المسؤولية؛ فهو أكثر راحة وأماناً وثقة وهدوءاً.. وزهداً ربما!

إنها القيمة التي كانت قبل المهمة، وتعزّزت في أثنائها من دون أن تتزيّن، وتأكدت بعدها..

إنها القيمة الحقّ، القيمة التي تستحقّ التقدير والإكبار والاحترام..

]]]

المحتوى

الإنسان والبرهان 5
الواجب والروح 9
العطاء! 12
تواصل 16
أنتَ وأنا! 20
خوف! 23
لا أعلم!! 26
أهل وأبناء.. 30
أساتذة وطلاب! 33
المرأة والرجل 37
الرجل والمرأة: المسؤولية 41
العمل 44
كفّو الملام! 48
الشخص 52
المبادرة الشخصية والخلاص الجماعي 56
القانون! 59

بين القول والفعل 63
نعم/ لا 67
من دون مبالغة ! 71
خيارات 75
ما بين الألم والأمل 78
رائحة احتراق مكتوم! 83
المسؤول الذي كان.. 88
مَشي..! 92
وظلم ذوي القربى.. 96
ساعة الغفلة 101
مفارقات عصرية 105
كلمة السر العالمية!! 109
كائنات غير عاقلة! 113
العاهة المعكوسة 116
عظّم الله أجركم 120
بلاستيك! 123
الترف 127
تعميم! 131
وجوه! 134
أعياد ومعانٍ.. 138
عطلة.! 141
الزمن! 145

الصيف! 149
جار البحر 152
هدايا 156
الثالثة ليست ثابتة!! 159
صار عندي محمول!! 163
فضل القيمة 168

]]]

نشرت مواد هذا الكتاب في عدد من الصحف والمجلات..